الخلوة و العودة الحلوة

أ.د. أحمد علي الإمام



الخلوة والعودة الحلوة

أ.د. أحمد علي الإمام



الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

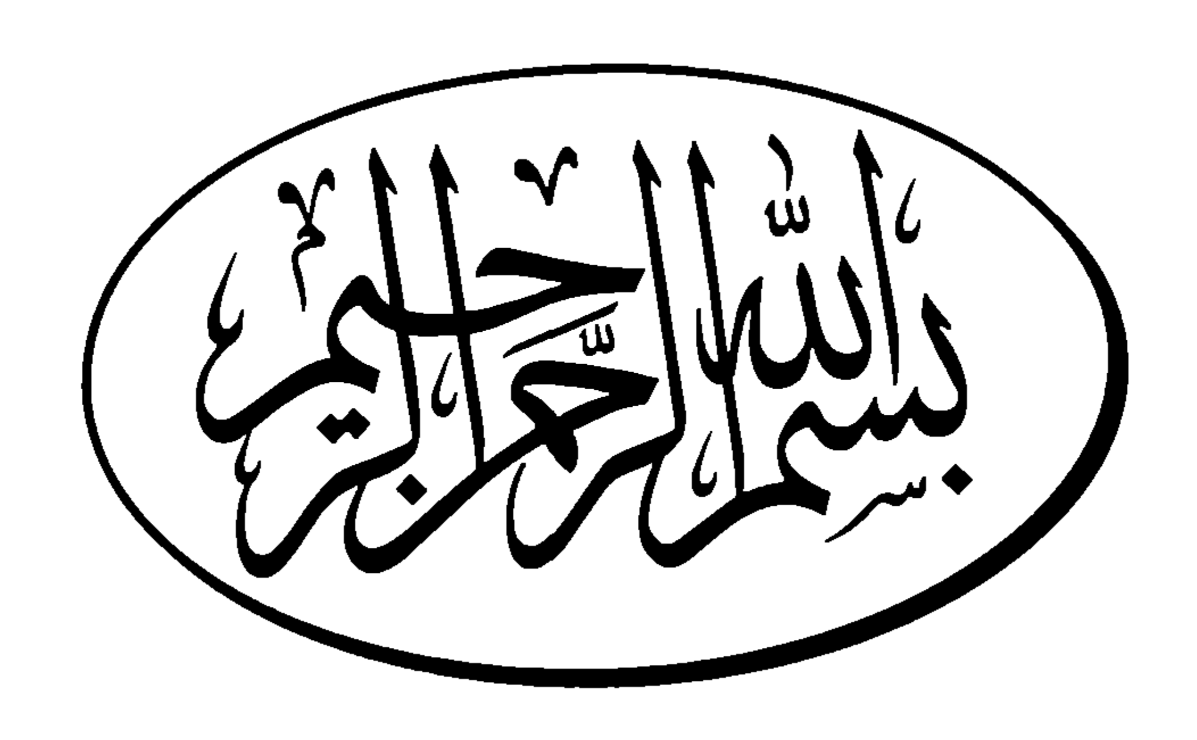
الطبعة الخامسة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٠٦

الناشر

هيئة رعاية الإبداع العلمي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحَمْــدُ لله نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه ونَستهديه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفُسِنا وسَيئاتِ أعمَالنا ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علي إمامِ الهُدى ونَبي الرَّحْمَةِ مُحَمَدِ بن عَبْدِ الله وعَلى آلِه وصَحْبِه أجْمَعينْ .

وأحْمَدُ الله اليكَ عَزيزي القَاريء إذْ هَيأ لنا اللِّقاءَ مع كتابٍ جَديدٍ مــنْ مَنْشُــوراتِ هيئة رعاية الإبداع العلمي (**الخَلْوةُ والعَودَةُ الحُلْوةُ**) زُبْــدةُ مـــا فــتحَ الله به علي شيخِنا الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام ، ففيه سَكَبَ عُصَارةَ رفقَتِهِ للقُرآنِ وأهلِ الذكرِ . فالشيخُ مِمَّنْ حَفِظَ القُرآنَ يافِعاً ، وأكْرَمَه الله تَعَالى فتقلبَ مع القُرآنِ في كلِ موقعٍ و مَسْــئولية ، حتى اقْتَرَن اسمُه به (**ذلك فَضْلُ الله يُؤتيه مَنْ يَشَاء**) .

إنَّ هــذا الكــتَاب جديرٌ بإعادةِ النَّشر ، ويَدُلُّ علي ذلك نَفَادُ كآفةِ طبعاتِه رُغْمَ انه لم يُكْمِلْ عَامَه الثاني مُنْذُ أتَمَّه إمامُنَا أحمد ، وإنَّ الهيئةَ إذ تَنْشُــرُهُ فـــي طَبْعَتِه السَادسة تدعو المُهتَمينَ بحركةَ التَّرجَمة لتقديمه بغــيرِ اللُّغةِ العَربيّة ، فالكتابُ ممتعٌ ومفيدٌ ، وهو أشْبَه بروايةٍ مِنْ مثلِ ماكتــبَ أعْظَــمُ أُدَبائِنا ، ولَكَمْ تَمَنْيتُ لو أُدخِلتْ مَادتُه في مناهِجِ الثَّقافةِ الإسلاميّة التي تُدَرسُ لطلاب التَّعليم العَام في مَدارسِنا . ولَقَدْ ذَكَرَني في تَنَاوُلِه وسَرْدِهِ المُبْدِعِ كتابَ الأيَام لطَه حُسَينْ ، غَيْرَ أنَّ الخَلْوةُ والعَودَةَ الحُلْوةُ فيه مِنَ الإنْصَافِ لأهْــلِ القُرآنِ وشُيُوخِهِ مَا يُؤكدُ أنَّ صَاحبَهُ قَدْ عَاشَ أسْعَدَ أيَامَ حَيَاتِهِ (**بَاركَهَا الله**) في الخَلْوةِ ، وما يَزالُ يَحنُ الى تلك الأيَــامِ فلَمّا غَلَبَهُ الشَوقُ جَعَلَهُ في كِتَابٍ ، فشَاركَهُ الكثيرون ممَنْ قرأوا

الكـــتابَ وبَـــادلوهُ شَوقاً وحَنيناً ، وحتّي الذين لمْ يُحظوا بدخول الخلوة وتلقــي العلــم فــيها ، قد أفاضَ عليهم هذا الكتابُ شيئاً منْ حلاوتها ، ولكأنــي حيــنَ أعيدُ القرآءةَ فيه مرات ومرات أتنقلُ داخلَ الخلوةِ بين الجــيرانِ وشيُوخِهم ، وتَجدُني تارةً أخُطُّ علي الرَّمْلِ آياتٍ منَ القُرآنِ . وتَارةً أحُومُ حولَ التُّقابة أراجعُ ما أحفَظُ منْ آيات.

عَزيزي القَاريء لا أقصدُ بهذه الكلماتِ تَشْويقَكَ لقَرآءةِ الكتاب، فإنّك منَ المُؤكدِ ستُراجعُهُ مراتٍ عَديدَةٍ ، فإنْ جَذَبكَ تَناوُلُهُ الرّاقي لحَياةِ الخَلْــوةِ ، فسَيجذبُكَ أكثَرْ حَلاوةُ ألفاظه ومَعانيه ، ولُغَته العَاليةِ السَّهلَةَ ، وربُّمـــا وجَدْتَ فيما استَشْهَدَ به منْ مآثرَ وأشْعارٍ تسليةً ومتعةً أكبَرَ ممّا وجَدتَه فيما سَبَقَ.

نَفَعَ الله شَـــيْخَنا وأُســتَاذَنا بعلْمه ، ونَفَــعنا به ، وشــكَرَ الله له إعلاءَه لمكانَةِ الخَلْوةِ ،والتــوثيقِ لَهَا.وأرجـــولكَ عـــزيزي القَاريء قَضاءَ أسْعَدَ الأوقَاتِ وانتَ تُقَلِّبُ صَفحاتِ هذا الكتاب بيْنَ يَديكَ وعينيك.

وآخِــرُ دَعْـوانا أنِ الحَــمْدُ لله ربِّ العَالَــمِينْ .

أمين عطا الله أحمد

مدير الهيئة

الإهداء

✿ إلى روح أبي، الذي سقاني حبّه على حبٍّ مَنْ أحبه خالصاً: الله ﷻ، وكتابه العظيم، ورسوله الكريم ﷺ:

شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ فما نفَد الشرابُ وما رويت

ومع هذا الحب النبيل رأيت في حياته تجديد السيرة النبوية، فكان عالماً عاملاً بعلمه، حافظاً للقرآن، جامعاً لقراءاته وتفسيره، وعالماً بصحاح السنة النبوية، ودواوين العربية مع الاعتزاز بما آتاه الله ﷻ من علوم الشريعة ولغة القرآن الكريم والمحافظة على سند الحفاظ وذلك في مواجهة مغريات عصره.

✿ وإلى مَنْ عشتُ في كنفهم وهم سعداء بما صار إليه ولدهم؛ فإلى السيدة الوالدة الجليلة، والجدة الوفيّة الكريمة، ومن اتّصل بهم أصولاً وفروعاً ونسباً وصهراً.

✿ ويمتد هذا الوفاء المقيم إلى أستاذنا الشيخ/ محمد إبراهيم الطيب الحداد في خلوة الشيخ صالح علي الأزهري، وإلى كل أشياخنا من بعد، وإلى زملائنا في حِلَقِ العلم ومقاعد الدرس، في الجوامع والجامعات.

✿ اللهم اغفر لمن مضى منهم في المهديين، واخلفهم في عقبهم في الغابرين، واغفر لنا ولهم يا رب العالمين.

- اللهم واحفظ مَنْ بَقِيَ معافىً في دينه وبدنه، وارزقنا وإيّاهم صلاح العمل وإخلاص المسعى وحسن الختام، والقرآن العظيم أوثق ما يكون في صدورنا حفظاً وأحسن ما يكون في ضمائرنا وجوارحنا عملاً صالحاً زاكياً.

- ثم إلى مَنْ يحملون عبء تجديد رسالة الخلوة من أشياخنا وإخواننا في بيئتنا الأولى دنقلا وما اتصل بها في كل بقاع السودان، ومما يلينا من إخواننا المسلمين، ممن تواثقنا وإياهم على المحافظة على هذا التراث النفيس، والتزمنا وإياهم حمل أمانة المسؤولية التضامنية من أجل أن يكون الدين كله لله، وتحقيقاً لهتافهم:(شريعة سريعة أو نموت.. الإسلام قبل القوت). وهاهي تباشير السلام تحمل عهد الحفاظ على هذه الأمانة، وببركتها سيكون ما يعد به القرآن العظيم من بركة المعاش وصلاح المعاد.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياهم ليكون عملنا كله صالحاً وخالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

تقديم بقلم

الأستاذ/ عمر عبيد حسنه[1]

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وتعهد بحفظه، وبيانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧-١٩)، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وجعل أهلية القراءة والحفظ من نعم الله.. جعلها هادفة قاصدة متدبرة: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٣-٥).

لقد تحقق عهد الله بحفظ القرآن من خلال عزمات البشر، فوصل إلينا منقولاً بقراءاته، وأصواته، وحروفه، ورسمه، كما نزل.

والصلاة والسلام على الرسول المعلم، الذي قال: «... إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا» (أخرجه ابن ماجه)، واعتبر القراءة ترقياً ورقياً، وتسامياً وسمواً، فقال ﷺ: ((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا)) (أخرجه الترمذي).

وبعد:

فهذا كتاب «الخلوة والعودة الحلوة» للأخ العالم العابد الحافظ الدكتور أحمد علي الإمام، الذي نسأل الله أن يكون حفظه للقرآن حافظاً له من كل سوء.. هي أشبه بخواطر، ونفحات، وشذرات، وأنفاس طيبة، وذكريات حلوة ذات مذاق متميز، وبوح بما في النفس، واعتراف بالفضل، ولا يعرف الفضل إلاّ ذووه..

---

(١) أستاذ جامعي، وكاتب وباحث، ورئيس تحرير كتاب الأمة، الدوحة، قطر.

جاءت نضيجة بعد مرحلة النضج والاكتمال، واختبار الحياة ومعاناتها، وما منحت تلك الأجواء القرآنية من الحماية والرؤية السليمة والاطمئنان لموعود الله، وما منعت من القنوط والاستسلام أمام التحديات وابتلاءات الخير والشر، ذلك أن الخلوة كانت وما تزال الرباط المتقدم، الذي يجمع بين العلم والعمل، والتعليم والتربية، والرحم الحاني الذي تتخلق فيه العواطف والسجايا، والمحضن الدافئ الذي تنمو فيه الشخصية وتتدرب على المعاني الخيرة، وتزرع فيه بذور مستقبل الحياة السلوكية.

وميزة هذه الخواطر والنفحات أنها تشكل النوافذ الأمينة للإطلالة على حياة الخلوة وعطائها التربوي والتعليمي، وتزكيتها للنفوس، وتأهيلها لحمل الأمانة واستشعار المسؤولية، خاصة وأنها جاءت من أحد أبنائها البررة الأوفياء.. جاءت بعد سن متقدمة، ونضج معرفي، وخبرة للحياة على الأصعدة المتعددة ونقد عذب أقرب للمناصحة والتضمين منه للمواجهة والتجريح.. جاءت إغراءً بتلك الأجواء، وحنيناً إليها، ليس هرباً من الواقع بكل تداخلاته وتعقيداته، وخيباته، وإنما رجوعاً لتلك الأجواء الطرية الندية، واسترداداً لذكرياتها، للتزود بكل معاني التحصين والحماية، للعودة الحميدة العازمة على الرشد.

وميزة صاحب هذه الخواطر، الأخ والأنيس والصديق الشيخ أحمد الذي يعتبر خلوة متحركة، الذي يجعل جليسه متمتعاً بأجوائها، ومتذوقاً لطعمها، حاناً إليها، أنه جمع بين الثقافتين، الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، وعايش

النظامين التعليميين، المنهج الإسلامي والمنهج الغربي، لذلك فحديثه عن الخلوة القرآنية وعطائها ودورها في التربية والتعليم والسلوك وتميزها في العطاء، على ضعف وسائلها وإمكاناتها، لم يأت من فراغ، أو الحياز إلى الذات، بقدر ما هو انتصار للحقيقة، وإغراء للمبهورين بالثقافات الغربية بضرورة إعادة النظر بجهلهم بحقيقة التعليم الإسلامي وعطائه المتميز.

وعلى الرغم من واقع مؤسسات التعليم الأصلي، أو الأساسي، أو الشرعي، وتوقفها عن التطور والامتداد والشمولية لشعب المعرفة، انسجاماً مع شمول الإسلام لجميع جوانب الحياة ، حيث لا تتحقق الرؤية الإسلامية السليمة إلا بتحصيل المعارف المتنوعة المؤسسة على المرجعية الشرعية، وعدم تنبهها المبكر إلى ضرورة توفير التخصصات التي تضطلع بوظائف المجتمع، مما أحدث فراغاً امتد إليه (الآخر) ، بمدارسه وقوانينه ومناهجه وإعلامه وثقافته ومنتجاته الاستهلاكية، الأمر الذي ساهم بمحاصرة المؤسسات الشرعية وتشويه سمعتها، ومحاولة عزلها وإخراجها من المدن والمجتمعات والأحياء وحصرها في هوامش المجتمع ومقابر الأموات،

فإن مدارس التعليم الشرعي وخلاوي القرآن ومراكز تحفيظه كانت وما تزال الترسانة العلمية والحصون الثقافية، التي دافعت عن قيم الأمة وحفظها ونقلها إلى الأجيال، واحتفظت بهوية الأمة، وتحولت في فترات تاريخنا الطويل إلى رُبُطٍ متقدمة للجهاد والدفاع، فحققت النفرة للاجتهاد والنفرة للجهاد أيضاً، وجعلت من خريجيها حصوناً لغويةً، ومنحتهم أصولاً علمية متينة ومرجعية شرعية للنظر في الفكر والفعل، ومخزوناً لغوياً صوّب تعبيرهم اللغوي، ونظّم تفكيرهم، وحمى طاقاتهم من الشتات والضياع، فكانوا الأكثر

نبوغاً، والأكثر تفوقاً، والأقوم سلوكاً، حتى في مجالات التخصصات العلمية المتنوعة.

ولئن كان المأمول من مؤسسات التعليم الأصلي ومراكز تحفيظ القرآن وخلاويه أن تكون أكثر تطوراً وفاعلية ونهوضاً بالأمة، إلا أننا نقول: حسبها أنها احتفظت بهوية الأمة وإمكانها الحضاري للنهوض، في الوقت الذي حاولت مناهج (الآخر) الإذابة والتغريب وإلغاء التراث والاستلاب الحضاري، ولم تحمل لأمتنا إلا الصاب والعلقم.

وتجيء هذه الخواطر والنفحات لأحد منتجات الخلوة وأبنائها الأوفياء الشيخ أحمد نِعْم الجليس الأنيس، في الوقت المناسب، لتمثل بوارق أمل، تحرك المشاعر، وتثير الأشجان، وتجدد الأمل، وتشحذ العزيمة، وتملأ النفوس بالثقة بموعود الله وترفع الغطاء عن الكثير من كنوزنا الغائبة عن مناهجنا التربوية والتعليمية، بعد أن كاد يطول الأمل وتقسو القلوب.

الدوحة في: ٨ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ

الموافق: ١٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٢م

مُقَدِّمَة الكتاب

الحمـد لله ربِّ العـالمين، حمـداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى.

نحمـده سـبحانه، استفتح بالحمد كتابه العزيز، الذي أنزله عـلى رسـوله الأمـين، حامل لواء الحمد يوم القيامة، جعلنا الله تعـالى في عـباده الحـامدين، وحشـرنا تحت لواء رسوله الكريم، نقـتدي بخُلقِه العظيم، ونتبع نهجه القويم، يهدينا ويرشدنا إلى الصـراط المسـتقيم، في صـحبة القـرآن الكـريم تلاوةً وتدبُّراً وعملاً ودعوةً وجهاداً.

الـلهم اجْـزِ عـنّا خـيـرَ جـزائك الأوْفى رسولك الكريـم خـاتـم الأنبـياء والمرسـلين.. الـلهم اجعـل صلواتك ورحمتك وبـركاتك عليه، وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.. اللهم وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون.

منشأ الكتاب:

كان مبعث هذه الخواطر والأفكار رحلة قمنا بها إلى ولاية نهر النيل[1].

كانت الرحلة كلها نقلة روحية في صحبة القرآن العظيم وأهله.

وقد وجدنا الإقبال على حفظ القرآن يفوق تقديرنا، وخاصة في نطاق المرأة، التي عادت تحفظ القرآن وتعلّمه كسابق العهد بها قبل الغزو الأجنبي الذي مضت خطته حيناً من الدهر لمقاومة مواطن العزة فينا ومكامن الخطر عليه.

كان الطلاب يملأون قاعة كبيرة وقد جلسوا للامتحان، ليلتحق من نجح منهم وبلغ رتبة الحُفّاظ بمعاهد تأهيل الحفظة في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية.

وأمر آخر هو أن أهل البلاد المقيمين فيها هم قوام طلاب حفظ القرآن الكريم على مختلف الأعمار، علاوة على عدد مقدّرٍ من الوافدين من شتى جهات بلادنا وما جاورها من الأقطار.

وبحمد الله قد صار لكل ولاية أو محافظة أو محلية أو حي عناية خاصة بإقامة مراكز تحفيظ القرآن وإحياء العودة الحلوة للقرآن الكريم.

هذا وقد امتدت الزيارات من بعد فشملت أنحاء واسعة من السودان، في وسطه وشماليّه وجنوبيه وشرقيه وغربيه، ونحن نتفقد بقاع التعليم الأصلي التي

---

(١) وذلك بدعوة من جمعية القرآن الكريم هنالك، في يوم السبت ١٧ من ذي القعدة ١٤٢١هـ، يوافقه: ٢٠٠١/٢/١٠م، وذلك في صحبة مولانا الشيخ محمد محمد صادق الكاروري، ومن مكتبنا المقدم/ أبو زيد محمد علي، وقد امتدت الرحلة - على مدى يومين- فشملت الدامر، والحديبة، وعطبرة، والضروسة، وكبوشية.

يشع منها نور القرآن ونتابع تطور هذا التعليم الأصيل..

وبـدا لـي أن أُدوّن انطباعاتنا عن هذه الرحلة، وما خطر لنا فيها من خواطـر، ومـا ثـار من الذكريات. فيالها من أيام، ويا لها من ذكريات باقية لا تمحى رغم اختلاف الليل والنهار ، أو كما قال أمير الشعراء:

اخـتلافُ الـنَّهارِ واللَّـيلِ يُنْسِـي ... فاذكـرا لـي الصِّـبا وأيـامَ أُنْسِـي

واسمينا هذه الخواطر (الخلوة والعودة الحلوة) .

مصطلح الخلوة:

أمّـا مصـطلح الخلـوة فهو من خلا يخلو خُلُوّاً أو خـلاءً، واخـلى: إذا لم يكن فـيه أحـد ولا شيء فيه وهو خلٍ . وخلا لك الشيء بمعنى فرغ ، ومنه أَخْلِ أمرك واخْـل بأمـرك أي تفـرّد بـه وتفـرّغ له، ومـنه استخلاء المجلس، وتستخلي به أي تستقل به وتنفردوخَلاَ على الشيء: اقتصر عليه[1].

وقـد أخـذ أشـياخنا مصـطلح (الخلـوة) مـن هـذه الوجـوه يعـنون بهـا: الاسـتقلال والانفـراد والـتفرّغ في المجلس الذي يستخلي به الشيخ عن الناس مـتفرغاً للتعـبد ولقـراءة القـرآن وتعلـيمه. وهكـذا شـأن طلاب العلم اقتداءً بشـيخهم. وكائـناً ما كانت دلالة كلمة الخلوة، إفراداً أو جمعاً، فهي تسمية محلية واسـتعمال خـاص بأهل السودان.. وربما كان الأصل في ذلك أن الشيوخ كانوا يـتفرغون لتعلـيم القـرآن والعلـوم الشرعية، ثُم يتّخذ كل واحد منهم لنفسه خلوة يتعبّد فيها ويقرئ القرآن ويعلم الناس أمور دينهم. على أن الخلوة كانت أيضاً بحكم العادة المتبعة في المؤسسـات التعليمية تتّخذ في الأطراف البعيدة عن

---

(1) ابن منظور: لسان العرب ، ١٤/٢٣٧- ٢٤٣.

القرى والمدن ينأى بها الشيوخ وتلاميذهم عن زحام الناس او منازعتهم في دنياهم.

وفي استخدام الشيوخ للخلوة التي يختلون فيها بأنفسهم يجمعونها خلوات .

وقد استخدمنا في سياق هذه الخواطر والذكريات صيغة الجمع (الخلاوى) للخلوة ، وهي على ما جرى به التعبير الدارج في بيئتنا السودانية، وإلاّ فصيغة الجمع هي (خَلَوات)؛ وذلك لأن كلمة (خلوة) على وزن فَعْلَة، وجمعها (خَلَوات)[1].

فإذا أجيز أحدهم بالحفظ وأراد أن تكون له خلوة خاصة في بلده صحبه الشيخ والحيران في مسيرة ذاكرة ولأصواتهم في الأرجاء دويٌّ من التهليل، ويصحبهم من يحمل من (تُقابة)[2] الخلوة الأصل شعلةً أو جذوةً أو قبساً.

هذا ويسمى مَقَرُّ تعليم القرآن في أجزاء من عالمنا الإسلامي باسم الكُتَّاب، والمدرسة القرآنية، أو مراكز تحفيظ القرآن الكريم. وكان يسمى في الأندلس مَحْضَرَةً؛ وجمعها محاضر، كما في قول الإمام ابن حزم:

---

(١) وقد أنشأ الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد محمد إسماعيل البيلي، الأستاذ حالياً في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن في كلية القرآن الكريم، أنشأ أرجوزة سمّاها: (الذائعة في الأخطاء الشائعة) مشيراً إلى تصحيح هذه الصيغة:

ولا تقُلْ في خَلْوةٍ خلاوي تقيسُهَا جهلاً على فتَاوي

ولا تقُل في جَمْعِهَا خلاوَى تقيسها جهلاً على فتَاوَى

فإنْ في القاموس لفظ فتوى وليس في القاموس لفظ خلْوى

(٢) وهكذا ينطقها أهل السودان بالتاء وهي موقد للنار المتّخذة للاستضاءة وأصلها بالثاء، وهي من مادة ثَقَبَ بمعنى أضاء كما في قوله تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق:٣).

مُـنَايَ مِـن الدُّنـيا علـومٌ أبـثُّها   وأنشـرُها في كـلّ بـلدٍ وحاضِـرِ
دعـاءً إلى القـرآنِ والسُّـنَّةِ الـتي   تناسـى رجـالٌ ذكـرَهَا في المحاضِـرِ

ولا يزال اسم المحضرة متداولاً في أجزاء من غرب العالم الإسلامي.

أمـا أصـل كـلمة (المسيد) عـندنا فمعناها المسجد بقلب الجيم ياءً، وفي العرب من لا يزال ينطقها كذلك.

وستمضـي هـذه الخواطـر في اسـتخدام كـلمة الخلـوة؛ لأن لهـا الغلـبة والانتشار اليوم.

مصطلح العودة الحلوة:

وحيـث إن الشـيء بالشـيء يُذكـر فإن (العودة المرة) حقيق بها أن تسمَّى الأولَـى، وتعـني في اصـطلاح الخَلَـوَات (الخـلاوى) تلك المرحلة التي يبلغ بها القـارئ المبـتدئ الختم الأول من سـورة الناس صعوداً إلى سـورة البقرة، ثم إذا أخـذ مـن أول القرآن نزولاً فبلغ إلى سورة الصافات عند الآية (١٤٥) وهي بدايـة الـربع الأخير من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (الصـافات: ١٤٥)[1]، عندئذٍ يُعاد للابتداء من أول القرآن الكريم إلى خـتام المصحف، فهذه هي إذاً (العودة المرة). أمَّا إذا عاد من بعد ذلك ليبدأ مـن أول القرآن في ختمة جديدة فهذه تسمى بالعودة العامة، وهي تسمى أيضاً (بالعودة الحلوة)؛ لأنها أيسر على الحُفَّاظ وقد جعلناها عنواناً واصطلاحاً خاصاً بهذه الخواطر الندية والذكريات العطرة.

---

(١) وعند آخرين أن الربع الأخير من القرآن الكريم يبدأ من الآية التي تلي هذه، وهي قوله تعالى ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾[الصافات: ١٤٦].

بين المؤانسة والمدارسة:

أمّا بعد: فقد غمرتني السعادة أيّما غَمْرٍ[1] أثناء تدوين ما تيسّر لي من خواطر "الخلوة والعودة الحلوة"، وما أحلاها من عودة واستذكار .. وبعد أن حررنا هذه الخواطر تركناها تنساب على سجيتها، ثم ألحقنا بها توثيقها من مظانّها إلا ما بعُدت فيه شُقة المصادر، فاكتفينا بما أسعفتنا به الذاكرة من وردها الدّاني.

و من أجل اتصال هذه الخواطر و تسلسلها، وخشية أن تحول التعريفات واستطراداتها عن المتابعة، أحلنا كثيراً من الاستطرادات إلى آخر الكتاب، على كونها تعدّ جزءً لا يتجزّأ من المتن.

وليست هذه الخواطر توثيقاً تاريخياً أو دراسة بحثية للخلوة ولا للتعليم الأصلي، فمن أراد شيئاً من ذلك وجده في مظانه من كتب طبقات العلماء وتاريخ الأمم أو كتابات مفردة عن الخلوة ومنهجها كما هو لدى الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة أبوبكر، والأستاذ الدكتور أحمد إسماعيل البيلي، أو دراسات تراثية كما في كتاب (المسيد) للأستاذ الطيب محمد الطيب، وإنما هذه الكتابة نهج خاص يجمع بين أدب المذكرات وكتابة الخواطر مع شيء من النظرة العلمية البحثية.. وهذا مرد التعريف الملحق بالعنوان (مؤانسة ومدارسة)، فهي مؤانسة من حيث هي ذكريات مؤنسة، ثم هي مدارسة من حيث استطرادها إلى شيء من البحث والدراسة.

وهي، من بعدُ خواطر ونظرات في التعليم الأصلي، وصفحات من

---

[1] انظر الاستطرادات رقم (١).

حـية جيل في سبيله إلى أن يمضي إثْر جيل مضى، نسأل الله تعالى أن يغفر لمن مضى بإحسان، وأن يمن علينا وعلى من ينتظر بحسن الختام.

وأرجـو أن تكـون هـذه الخواطر، من بعدُ، مبعث آراء مفيدة ليكتب بعدنا من فتح الله عليه - وهو الفتّاح العليم - عن هذه التجربة التربوية الجديـرة بالاحـتذاء لـتطويـر إيجابـياتـها، والانـتفاع بمـزايـاها. وحـبذا لـو خصصت جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالتعاون مع هيئة رعاية الإبـداع العـلمي مكافـأة عظـيمة ومـنحة دراسية لبحث شامل عميق عن الخلـوة وآثارهـا التربويـة في مدينة أم درمان الوطنية التاريخية، والتي كان في كل حَيٍ من أحيائها العريقة خلوة مشهورة.. وعسى أن يُحْتَذَى هذا البحث فيما بعد مع مدن ومناطق أخرى.

ولابـدّ لهذا العمل من توثيق الصلة بجمعية الإصلاح والمواساة، ذات السـبق في هـذا المضــمار، وهـي تقيم حولياً ندوة تقويمية لتجربة المدارس القرآنـية بالـتعاون مـع وزارة التربـية والتعلـيم. وحـبذا أيضـاً امتداد هذه الصــلة بجمعـية القـرآن الكـريم ودار مصـحف إفريقـيا ووزارة الإرشــاد والأوقـاف، ولعـلها تقـود رعايـةً حانـيةً تـؤدي إلى تخصيص أوقاف خيرية لصالح تعليم القرآن الكريم وتطوير نظمه التعليمية.

وفي (الخلـوة والعـودة الحلـوة) كذلـك دعوة إلى الانتجاع من خضم المديـنة الصـخّاب إلى القـرية، لإحـياء نضارتها وطراوتها وطلاوتها، حيث صـمت فـيها الآن صـوت الـنواعير والسواقي، وكادت تغيب عنها مشاهد الحـية الطبيعـية، حيـث كانـت تـرد الغزلان موارد الغدران، وسط لوحات الخضرة الخلابة ،

وكأن لسان حالنا يردد مع أبي الطيب:

حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حسنٌ غير مجلوب

أو مع الشاعر محمود غنيم في قصيدته عن "القرية":

عَشِقُوا الجمالَ الزَّائفَ المجلوبا وعَشِقْتُ فيك جمالك الموهوبا

وفي (الخلوة والعودة الحلوة)، بعد دعوة للمؤانسة والمدارسة في قضية من القضايا التي يقلُّ فيها الجدال والاختلاف ممّا كثر بين الناس فيما لا طائل وراءه. وقد اطّلع بعض أصحابنا على أصل هذا الكتاب فشعر بالغبن من أنّه لم يعش تجربة الخلوة في حياته. ونحن لذلك ندعو إلى أوبةٍ وعودةٍ حلوة إلى روح الخلوة، وبما يناسب تطوُّر المرحلة في الوسائل التعليمية، كاستخدام الحاسوب والأجهزة الرقمية بالصوت والصورة، مع التفسير وشرح المعاني وترجمتها للمحتاجين إليها من المتحدثين بغير العربية.

أما من حيث إن هذه الخواطر والنظرات في كثير من المواطن يغلب عليها التعميم فلحكمة مقصودة مؤداها أن هذه الصفات أو تلك تصدق على طائفة مستفيضة من أولئك الشيوخ والحيران، كما أنها السمة الغالبة لكل خلوة في كل منطقة .

أما كلمة حلوة في وصف العودة فإنها عربية فصيحة على كونها مستخدمة بكثرة في لغة العامة لكنها لم تفقد بريقها ومنها في الحديث النبوي في وصف الدنيا زينتها : (الدنيا حلوة خضرة) .

شكر وتقدير:

وجزى الله تعالى خيراً من نهضوا لطباعة هذا الكتاب ومراجعته، ومن شاركني من أشياخي وإخواني هذه العودة في استحضار ذكريات نصف قرن مضى منذ أول الالتحاق بالخلوة، وقد انتفعت من ملاحظاتهم القيمة.

والشكر مبذول من بعد لصحيفة (الأنباء) التي احتفت بهذه الخواطر ونشرتها في شهر رمضان المعظم من عام ١٤٢٢هـ وهاهي تلك الخواطر تصير مشروع كتاب يصدر الآن مقتصراً على ما اتصل بالخلوة، دون ما يتلوه من حديث حول التعليم المعهدي المتخصص في العلوم الشرعية واللغة العربية.

كما أن صحيفة (الأسبوع) حقيقة بالشكر، لتخصيصها صفحتها الأخيرة كاملة لقصيدة الخلوة التي وردت في الكتاب، وقد أثارت في وجدان بعض المحبين تعلقاً وحواشي نضيرة على نهجها، ولصحيفة "المؤتمر" شكر خاص حيث نشرت الجزء الأول الذي كتب في حينه عن تلكم الرحلة الميمونة.

اللهم اجعلنا بحمدك في مزيد نعمائك، اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا وأن نعمل صالحاً ترضاه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، وأصلح لنا في ذريتنا إنّا تبنا إليك وإنّا من المسلمين. ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤-٧٦)، واجعلنا من

: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٣٢)، ومن أهل التقوى الذين تتلقاهم الملائكة في الجنة وقد فتحت أبوابها على احسن هيئة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣)، ويُبشرون بالسلام في دار القرار: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٤)، واجعلنا من أهل الجنة الذين ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ٩-١٠).

وصلوات الله المباركات وتسليماته الزاكيات على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله، حامل لواء الحمد يوم القيامة، وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين.

منهج الخلوة

الأقلام والدواة والألواح:

مـن لـي بـتلكم الأيـام الزاهـرة النّاضـرة، سـقى الله عهدها، حيث كانت الأنـامل الغضّـة يومـئذٍ تحوّم في أديم الخلوة لتنظّف حرمها وتُصبح بينتها، ويملأ جوانحـنا السـرور بهـذا الصنيع، ولقد تعلمنا بالقدوة الحسنة كيف نحافظ على نظافـة الأبـدان وطهـارة المسيد ونقاء السيرة والسريرة، حيث كنّا لا نبصق ولا نمشـي بالنعل على ذلك الترب الطاهر، ونتعامل معه كأنه وادٍ مقدّس، أو حرمٌ آمن، له ما للمساجد من حرمة وتعظيم.

وكانـت أقلامـنا الأولى سبّاباتنا المسبِّحة ، كما كانت ألواحنا أديم الأرض ووجـه الصـعيد الطّاهـر[1]، ثـم تطورنـا للكـتابة عـلى الألـواح الخشبية بأقلام (الـبوص). وكـان اللـوح والقلم والحبر (العَمَار) والدواة (المحبرة) جميعاً وليدة الوسـط والبيـئة (صـناعة منـزلـية مـن مـواد محلية) قوامها خشب الأشجار في مزارعنا، وصمغ المشاب، و شعر الغنم ، وسِنَاج التّنُّور[2].

وتسـتعيد الذاكـرة في هذا الموقف ما كان بعد هذا من تحلقنا حول شيخنا وهـو يملـي مـن حافظـته القـدر الملائم مع كل واحد، وذلك على كثرة المتلقين واختلاف مواضع تلقيهم، فنكتبه على ألواحنا، وهو ما يسمى (الرمية).

ويـا لها من قدرةٍ خارقة يمتلكها الشيخ وقد تحلّق حوله الجيران بالعدد الجم الغفـير، يملي على كل واحدٍ من حفظه من غير ما تردد ولا تلعثم، فقارئٌ يقرأ:

---

[1] انظر الاستطرادات رقم (٢).

[2] السُّـنَاجُ: أثـر دخـان التّنّور، وهو الفُرن الذي يُخبز فيه، وأما في اللغة الدارجة فيطلق على السناج السكن والسجم.

﴿ما يود الذين كفـــروا من أهـل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خيرٍ من ربكم﴾ فـيملي الشيخ على حواريه تمامها: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضـل العظيم﴾ [الـبقرة: ١٠٥]، وقـارئ ثـانٍ يقـرأ: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك﴾ فـيملي الشـيخ: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين﴾ [النسـاء:٦٩]، وآخـر يقرأ: ﴿اليوم يئس الذين كـــفروا من دينكم﴾ فيملي الشيخ: ﴿فلا تخشوهم واخشونِ﴾ [المائدة: ٣]، وإذا بآخر يقرأ: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ فـيملي الشـيخ: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعـة: ٢]. وهكـذا يمضـي الحيران في فواتـح الأيات فيجيب الشيخ بخواتمها، وهي طريقة في التعليم فريدة تتجاوز في التعليـم الحديـث مقـدرة المعـلم الواحـد في الفصل وهو يدرّس تلاميذه المواد الدراسـية عـن إعـداد وتحضـير، ولا غرو فالشيخ في الخلوة تدور حياته بأجمعها حـول القـرآن، نصاً وروحاً، ولذلك جاء تعليمه للقرآن جزءً لا يتجزأ من حياته بهذا المنهج الخارق الفريد.

وإذا فرغنا من الكتابة وصحّح الشيخ الألواح وأشار عليها بشارة الصحة عكفـنا عـلى حفظ مكتوبنا ثم عرضناه عليه فيما كان يُعرف (بالعرضة)، وهي تـلاوة التلميذ على الشيخ ما حفظه من لوحه.. ثمّ يلي (العرضة)، محو ما كتبنا على اللوح في موضع مرتفع كريم تلتمس بركته.

أمّـا في المحاضـر الموريتانية فتُمحى الألواح بماء الزعفران، ويُشرب هذا الماء التماسـاً للـبركة. وهكذا كان من إجلال القرآن عندنا، حتى إن ألواحه المكتوبة

تلقّى هذا الإجلال ناهيك عن حملة القرآن وحفّاظه. وهي عملية مستمرة، فكلما أجيز الطالب في العرضة سُمح له بمحو ما حفظه وأتقنه ليكتب على اللوح ما اتّصل بحفظه القديم، وهكذا دواليك[1]، ومثلما تُمحى الألواح في مكان مرتفع محترم متّصل بركن من الخلوة، فإن الألواح توضع أيضاً فيما كان يُسمى (الكبَس) ، وهو في وسط السودان يُسمى (الرُّوشان)، وكان يُصنع من جريد النخل، ويُعلّق بالحبل على سقف الخلوة. وهذا بينما هو يُسمّى بـ(الككَر) في أجزاء أخرى من السُّودان، حيث يُبْنى في ركن الخلوة بناء مرتفع توضع فيه الألواح.

كم لنا شوقٌ مقيمٌ:

وممّا هجم على الخاطر -من بعد- منظومة تذكارية عن (المسيد) وعن ذلك النظام التعليمي الفريد.لنستعيد تلك الذكرى الشجيّة:

كَمْ على الأرضِ جلسْنا ..

وافترشنا للتُّراب ..

وعلى الرَّملِ كتبنا بالأنامل

وارْتَقَيْنَا فاصْطَنَعْنا

كُلَّ شَيْءٍ بيدينا

من دواةٍ وقلم

ثمّ ألواحِ خَشَب

(١) دواليك (بلفظ التثنية والإضافة): من المصادر المثناة للمبالغة والتكثير: تداولٌ بعد تداول (مداولة على الأمر) (انظر المعجم الوسيط، تأليف إبراهيم مصطفى وآخرين، ط المكتبة الإسلامية، استانبول - تركيا، ١/٣٠٤.

واحْتَطَبْنَا واسْتَقَيْنا

ونَقَلْنَا الماءَ في أكتافِنا

يملأُ الخاطرَ تعظيمُ الكتابِ

ثم إجلالٌ لشيخٍ ذي وقار..

زاهدٍ في زخرفِ الدُّنيا

مضيء كالشهاب

مع توقيرٍ وهَيْبة

ولنا أيضاً محبَّة

لرحابِ المسجدِ العامرِ

للأصواتِ تتلُو

في حنّوٍ وخشوعٍ

ذلك الأدبُ المُزكّى

يملأ الوجدان منّا

ليْتَهُ عادَ إلينا

ليْتَنَا عُدْنَا إليه

***

كَمْ لنا شَوقٌ مقيم

ماله من منْتَهَى بعدَ الأصِيلِ

بعد نصفٍ قد مضَى من عمرنا

نصفِ قرنٍ أو يزيد

ثم قد حان المغيب

مرحباً خيرَ وداع

ربِّ فاجعلها شهادة

وأنلنا عزّها يغمرُنا

مِثْلَما قد نالها

أهْلُ بدرٍ من قديم

أو كما قد نالها من جيلنا

شهداءُ صالحون

من شبابٍ وشيوخ

جعلوا القرآن نوراً وإماما

واجَهُوا الأخطارَ في شوقٍ عظيم

ثم نالُوا ما تمنَّوا

ما تَوَانَوْا في أداءِ الواجبِ

ها هنا في بلدي

أو في فلسطين الجريحة

إذْ عَثَا فيها بنو صهيون إفساداً كبيرا

ربِّ دمِّرهم ومن والاهمو

أرنا القدرة فيهم

ربِّ وانصرنا عليهم

***

ولنا عودٌ مرجّى برزخيَ

وقيام وابتهالٌ وحيلة

ورجاءٌ في النجاة

ولنا لقيا على أرض الجنان

رحمةٌ من ربّنا

لنعودَ العودة الحلوةَ

بالذكرِ الحكيم

ثم نلقاك رسولَ الله

بالأشواقِ منّا

معك الأصحابُ والآباءُ والأشياخُ منا

حَوْلَ حوضِ الكوثرِ

***

يا له من ملتقىً جِدٍّ عظيم

وهتافُ القلبِ منًّا

كم يناجِي ويُنَادِي

يَا لأشْواقٍ قديماتٍ عتاق

ملأتنا بخُشُوع

ثم فاضَتْ مِنْ مآقينا الدُّمُوع

هـذا وقـد هجمـت علينا هذه الأهزوجة على هذا النَّحو من النظم بينما كـنا في مقتـبل عمـرنا وأول عهدنا بنظم الشعر، وإلى عهدٍ قريب لا نعرف إلاّ الشـعر العمـودي المـوروث نظمـاً وقافـية ورويـاً، وكـنَّا لحـب الأدب العـربي والقصائد الجياد وبخاصة شعر الحكمة ولا نرى ما سوى ذلك يعجبنا.

أمّـا هـذه الأهـزوجة فإنّهـا قد صدرت عنَّا على هذا النحو الأقرب إلى ما يعـرف بشـعر التفعـيلة. وربمـا كانـت أجـواء الخلـوة سـبباً في النزوع إلى هذه البسـاطة ليدرك الحيران القيم التربوية الروحية لتراثهم التعليمي الأصلي.

يوم الختمة وإجلال القرآن:

ثـم نذكر ما كان يصحب مجيء القلام الجديد من الصبيان في صحبة أهله مـن احـتفاء بـه، وابـتهاج له، يتخلله توزيع التمر بوجوهٍ باشة هاشة. وكم كان جلـيلاً ونبـيلاً احـتفال القـرية أو المديـنة كلها بيوم الختم (الختمة)، يوم يكمل (أحـد الحيران) حفظ القرآن، ويجلـس في صدر المجلس وقلب الاحتفال، ويقرأ ما جرت به العوائد الكريمة من قراءة خواتيم سورة البقرة وربما سمح للحضور بأن يسـأل المحـتفى به ليقرأ عليهم ما حـددوه.. وما أعظم فرحة الوالدين بولدهما يومـئذٍ كيف لا! وبصنيعه يُحلّيان بتيجان الوقار على رؤوس الخلائق في أعلى الجنان، كما بشّر بذلك رسول الله ﷺ إذ يقول: (مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أُلْبِسَ وَالِـدَاهُ تَاجًـا يَـوْمَ الْقِـيَامَةِ، ضَـوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِـي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟!)[1].

---

(1) سنن أبي داود برقم ١٤٤٨ ، كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، ٢/٢٦٨.

ونظم هذا المعنى الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى[1] في منظومته المشهورة "حرز الأماني ووجه التهاني" في القراءات السبع، حيث يقول:

وإن كتاب الله أوثقُ شافعٍ ... واغنى غناء واهباً متفضّلا
وخيرُ جليسٍ لا يُملُّ حَديثه ... وتردَادُه يزداد فيه تَجمُّلا
وحيثُ الفتى يرتاعُ في ظلماتِه ... من القبر يلقاه سَناً متهلّلا
هنالك يَهنيه مَقِيلاً وروضةً ... ومن اجْلِه في ذروة العزّ يُجْتَلى
يُناشدُ في إرضائه لِحبيبه ... واجدِر به سُؤْلاً إليه موصّلا
فيا أيها القارئ به مُتمسّكاً ... مُجِلاً له في كلّ حالٍ مُبجّلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما ... ملابسُ أنوارٍ من التّاجِ والحُلا
فما ظنُّكم بالنَّجْلِ عند جَزائه ... اولئك أهْلُ اللهِ والصفْوَةُ المَلا
أُولُو البِّر والإحسانِ والصَّبرِ والتُّقى ... حُلاهُم بها جاءَ القُرَانُ مُفَصّلا
عليك بها ما عِشتَ فيها مُنافساً ... وَبِع نَفْسَكَ الدُّنيا بأنفاسِها العُلا

وعلى ذكر الإمام الشاطبي وقصيدته (حرز الأماني) التي سارت بذكرها الركبان، فقد كتب لها ذلك القبول لأنها كانت مصحوبة بالإخلاص ابتداءً؛ لما ورد من أن الإمام الشاطبي قال في مجلسه بين تلاميذه المقربين: (لا يقرأ احد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها؛ لأنني نظمتها لله)[2].

أمّا الأسر المحافظة على سند الحُفّاظ في نسبها العالي فكم كان يثلج صدرها اتصال هذا السند وامتداده، وذلك من المآثر العظيمة.. ويا له من يوم

(1) انظر الاستطرادات، رقم (٣).
(2) انظر الاستطرادات، رقم (٤).

من أيام الله كان لا يدانيه أي سرور لاحق بشهادات مدرسية أو جامعية، وليس من شهادة مرتقبة أعلى منه في وجداننا يومها وحتى يومنا هذا أيضاً بحمد الله تعالى؛ اللهم إلاّ تلك التي يتّخذ الله تعالى أصحابها شهداء بصلاح العقبى وحسن الرفقة، كما يقول القرآن العظيم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء: ٦٩).

رواية ورش عن نافع :

وعلى ذكر التعليم الاصلي، و منهجه في الخلوة، فإننا قد أخذنا بنهج المغاربة في تحفيظ القرآن الكريم للناشئة منذ نعومة أظافرهم، وذلك قبل اشتغالهم بتلقّي أيّ علم سواه، وذلك حتى يتمكن توقير كتاب الله تعالى من قلوبهم، فتعود بركته على سلوكهم، وتثمر منفعة في مداركهم، فيؤثر حفظه وتدارسه على معاشهم ومعادهم.

وكان يسود المنطقة كلها ويميزها أنها تقرأ القرآن العظيم "برواية ورش عن نافع "، ورأينا من بعد شيوخ الإقراء يذكرون أن السعيد ذا الحظّ العظيم من كانت قراءته الأولى وفقَ هذه الرواية؛ وذلك ليتلقّن في صغره ما يحتاج لتدريبٍ كثير لاحقاً. وكان حُفّاظ القرآن في بلادنا عامة يقرءون بهذه الرواية، علاوة على رواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء.

أما رواية حفص عن عاصم، فلم يكن يقرأ بها يومئذٍ إلا قليل جداً من القراء حتى صارت لها الغلبة اليوم في الانتشار بفضل التزام الخلافة العثمانية

بهـا في طـباعة المصـاحف[1]. وحـبذا المحافظـة على ذلك التراث مع هذه الأوبة الجديدة نحو القرآن، والسـودان بحمد الله يستضيف هذه الروايات مجتمعة موزعة عـلى الأقالـيم الجغرافـية، وهـي مـزيَّة عظـيمة والحمـد لله. أما عـلى مستوى المختصين فما يزال عدد وافر من حفاظ القرآن يجمعون القراءات المتواترة كلها بأسانيدهم المتصلة.

وأذكـر فضـل أستاذنا الفقيه العلاَّمة[2] الذي نصحني بالمحافظة على رواية ورش عـن نـافع، وحدثـني أنهـا قـراءة أهل المدينة، وأنها قراءة أهل الجنة كما يقـول السـادة المالكية[3]، وأنها كانت تميِّز الطلاب المنتمين لدنقلا في معهد

---

(1) لـم يكـن يعرف هذه الرواية في بلادنا إلا قليل من أهل الاختصاص، وقلّ ما تجد إجازة قراءة بهذه الـرواية، ومـن ذلـك أني رأيت إجازة بالسند المتصل برواية حفص عن عاصم للسيد أحمد المعز الإدريسي عن شيخه والدنا - رحمه الله تعالى- ثم علمت من بعض أشياخنا أنه كان بمعهد أم درمان العلمـي مقـر لتعليم القرآن الكريم كان يُسمى (الكتّاب)، وكان يقرئ فيه الشيخ حسن سعيد رحمه الله بـرواية حفص عن عاصم وذلك قبل نحو سبعين عاما، ولم تعرف هذه الرواية في خلاوي السودان إلا مـنذ نصف قرن، وخاصة خلاوي كدباس بولاية نهر النيل، وخلاوى الشيخ علي بيتاي رحمه الله والتـي انتشرت في شرق السودان، ثم بدأت تنتشر في أجزاء من غرب السودان وشماله ممّا أقامه هو وأتباعه من الخلاوي ، رحمهم الله تعالى ، (انظر أ.د. يوسف الخليفة أبو بكر. بحث "دور الخلوة في التعليم الأساسي"، مصدر سابق).

(2) وأسـتاذنا هذا هو الفقيه العلامة الشيخ يوسف إبراهيم النور، حيث كانت تعقد حلق التلاوة هذه بمسـجده المشهور في حي الملازمين بأم درمان، وعمل بالقضاء الشرعـي، واشتهر بالأمانة والشـجاعة، وأنـشأ -حيث حل- معهداً علمياً، وعقد مجالس العلم في رحابـه. وبعد تقاعده ظـل يؤلف ويدرس في جامعـة أم درمان الإسلامية، وبقسم الشريعة في كلية القانون، جامعة الخرطوم وأنشأ مسجده الذي كان خطيبه وإمامه، وشرع في بناء معهد اكتمل من بعد لتدريس علوم القرآن والشريعة.

(3) ولـيس في الباب فيما وصل إليه بحثنا حديث يعتمد عليه، ويبدو أن ما ذهب إليه المالكية كان اجـتهاداً منهم ورأياً على اعتبار عمل أهل المدينة حجة ودلالة على الهدى النبوي، وذلك وفق مذهـب مالك، ورأوا قراءة نافع تمثّل قراءة أهل المدينة، وهي أقرب في أداء تلاوة القرآن إلى تلاوة النبي ﷺ التي هي أولى أن تكون عليها قراءة أهل الجنة. قال الليث بن سعد، رحمه الله: قدمت المدينة سنة مائة فوجدت رأس الناس في القراءة نافعاً، وقال مالك، رحمه الله: قراءة نافع سـنة. (انظر فتح الوصيد في شرح أبيات القصيد للإمام السخاوي) مصدر سابق حاشية برقم ١٥ صـفحة ١٤٣. وعلى كل حال فحسب أهل الجنة أن فيها متعة عظيمة من قراءة القرآن العظـيم. ونسـأله - سبحانه وتعالىَ- أن يجعلنا وأشياخنا وأهل القرآن كلهم من ورثة الجنة،

ام درمان العلمي يومئذٍ وذلك عندما علم مني ذلك وشهده بنفسه في حلقة التلاوة الأسبوعية التي كانت تعقد ليالي الجمع بمسجده، حيث أبدى الاعتراض عليها مَنْ لم يكن يعرف قراءتنا، وخاصة في المدود وترقيق الراءات وتغليظ اللامات.

وقد حدثنا أستاذنا الدكتور يوسف الخليفة أبوبكر أن شيخه أوصاه حين تخرّج عليه بحفظ القرآن أن لا يدع الرواية التي حفظ بها وكانت رواية الدوري.

تعلُّم القراءة والكتابة في الخلوة:

ولقد كان المجتمع كله يتعلّم القراءة والكتابة عن طريق تعلُّم القرآن، وعامته يختمون المصحف قراءة وكتابة، وأمّا الحفاظ فيكاد عددهم لا يقل عن ربع أهل البلد، وكان أمراً عادياً أن يشتغل أكثرهم بعد حفظهم للقرآن بالزراعة ونحوها من المهن التي يكتسبون معاشهم منها.

وجاء في بحثنا بعنوان (تعليم القرآن الكريم واللغة العربية) المقدَّم إلى مجمع اللغة العربية بالخرطوم في (ندوة تعليم القرآن الكريم واللغة العربية في المراحل الدراسية كلها) بتاريخ الأربعاء لخمس مضين من شعبان ١٤١٩هـ ١٩٩٧/١١/٢٥م المنعقد في قاعة الشارقة :

(وتعليم القرآن وعلاقته باللغة العربية علاقة اقتران، وقد كان المتعلمون يبتدئون بحفظ القرآن الكريم، فإذا أتقنوه تفرغوا للعربية وتبحروا في آدابها قبل دراسة العلوم الشرعية . والنصوص القرآنية المختارة للدراسة في مراحلها كانت هي أمثل طريقة لتعلم العربية إملاءً ومطالعةً وإنشاءً ونحواً وصرفاً

المنعمين فيها بقراءة القرآن العظيم.

وفنوناً بلاغية وادبية. وهذا أمر مهم جداً علينا أن ندخله في مناهج تعليمنا. وطالع مثلاً كتب النحو وما تضمنت من قيم وآداب. والقرآن هدف عظيم لتعليم اللغة العربية، وهذا مما وسّع انتشارها بين الشعوب وسهّل تعليمها حتى ابتدع بعضهم لتعليم القراءة في المصحف طريقة للقراءة والكتابة في تسعة أيام، وقد قام بهذا العمل الجليل صديقنا الدكتور محمد إبراهيم سورتي صاحب مؤسسة "قاف" في برمنجهام ببريطانيا. وتدريس اللغة العربية في مرحلة مبكرة كمرحلة الخلوة يساعد في أن ينشأ المتعلمون على فصاحة اللسان مع طهارة الجَنان والأنفاس، وطريقة التراكيب بتعليم القرآن أضبط وأوثق للفهم ، ويولّد في الطلاب الملكة اللغوية. والقرآن لا يعلم الطلاب اللغة العربية فحسب، بل إنه يكسبهم ما يتميز به القرآن من جمال وجلال وقيم وآداب: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩). ومن هنا كانت (الخلوة) بيئة متكاملة قبل أن تكون مدرسة تعليمية. والتعليم ميسّر فيها لأنه هكذا نزل: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ (القمر:١٧).

وكانت خلوتنا تعلم المتقدمين في الحفظ، شيئاً من العلوم الشرعية والعربية، وكان شيخنا في مراحل متقدمة من مدارجنا في الخلوة يأخذنا لحضور مجالس العلم والذكر.. أما فيما سوى ذلك فقد كان يقوم بتدريس الرياضيات معلم خاص، وأذكر أنه كان يستخدم الواح (الإردواز)[1] كوسيلة للكتابة. وهذا وذاك مما كان معروفاً في رحاب (الخلاوى) حتى اقتصرت على تعليم القرآن

(1) حجر صلصالي ذو لون ضارب للسواد، تتخذ منه الألواح للكتابة، ويستعمل في اغراض اخرى . (انظر: المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر ، استانبول، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

بآخرة، ولعل المدرسة القرآنية اليوم تعيد ذلك النهج القديم.

الرسم المغربي للكتابة:

وعلى ذكر تعلم القراءة والكتابة في الخلوة فإننا تعلمنا الكتابة على الرسم المغربي (المغاربي) الذي كان من خصائصه جعل نقطة واحدة للقاف من فوقها، وأمّا الفاء فكانت تنقّط نقطة واحدة من تحتها، وذلك كما في الصفحة المصورة في صدر هذا الكتاب لسورة الفاتحة المطبوعة بالخط الكوفي المغربي، ووفق رواية ورش عن نافع لشيخنا في الخلوة[1]. ويُلاحظ أن القاف منقوطة نقطة واحدة في كلمة (المستقيم) من قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وقد كان رسم المصحف في أول عهده من غير نقط ولا ضبط للحروف، حتى إنه لم يكن ثمّة ما يميز في الرسم بين الفاء والقاف، كما أن رسم الحرف (ح) صالح للجيم والحاء المهملة (غير المنقوطة) والخاء المعجمة (المنقوطة) وهكذا، وإنما كان الاعتماد على التلقي لا على مجرد رسم الحروف.

هذا ومن لطائف المعارف ما حكاه الإمام البلوي صاحب كتاب (ألف باء) حول هذه المسألة حيث قال: (كنت أقرأ على الحافظ بالإسكندرية، رحمه الله وحرسها، من تأليفه فمررت فيه بحديث يرويه عن أشياخه عن الشافعي رضي الله عنهم قال: الفول يزيد في الدماغ والدماغ يزيد في العقل. وأهل تلك البلاد ينقطون الفاء بواحدة من فوق وينقطون القاف باثنتين من فوق أيضاً، فلم ألق بالي وحسبت الفاء قافاً فقرأت: القول يزيد في الدماغ، فضحك، وكان حلواً

---

(١) وهو شيخنا المتقدم ذكره الشيخ محمد إبراهيم الطيب الحداد، رحمه الله تعالى، المتوفى في الخامس من رمضان ١٣٩٦هـ وهذا المصحف طبع بمصر سنة ١٩٣٠م كما مبيّن في تلك الطبعة، (والتي ربما تعادل ١٣٤٩هـ).

طريفاً رحمه الله، وقال لي: الفول يفرغ الدماغ، أو نحو هذه الكلمة، فقلت له: القول عندي في الكتاب، فقال: إنما هو الفول، فأعلمني بمذهبهم في النقط. فقلت له: كيف يزيد الفول في العقل ونحن نقول في بلادنا بخلاف ذلك؟ فضحك وقال: سألت عن هذه المسألة شيخي فلاناً، نسيتُ أنا اسمه، قال: فقلت له: كيف هذا وطبرستان أكثر بلاد الله فولاً وأهلها أخفّ الناس عقولاً فقال لي: لولا الفول لطاروا)[1]. هذا وربما كان ذكر طبرستان في هذا السياق من حيث كان يتنافس أهل البلدان حول إظهار فضائلها.

و بهذه المناسبة، فلا يزال أهل المغرب، يحافظون على رسم هذه الكتابة لحرفي القاف والفاء.

كما أن نظام تعليم القرآن متشابه بيننا وبين بلاد المغرب .. ومن ذلك أننا زرنا في موريتانيا محاضرها التي تعلم القرآن، ثم تدرس علوم الشريعة واللغة العربية، فوجدنا على سبيل المثال لا الحصر في قلب الصحراء بقرية (النَّبَّاغيَّة) خلوة تقوم فيها النساء الحافظات على تعليم الأولاد القرآن بروايتي قالون وورش عن نافع ثم السيرة النبوية من بعد. وأمّا علوم الشريعة واللغة العربية فيقوم بتدريسها الشيوخ الذين أُجيزوا في هذه المحاضر نفسها.

ولجلال تعلم القرآن، وتعلم القراءة والكتابة كطرف منه، جعل النبي ﷺ عتق طائفة من أسرى بدر أنْ يُعلّموا صبيان المسلمين القراءة

---

(1) أبو الحجاج يوسف محمد البلوي: كتاب ألف باء، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ٢/١٥٩-١٦٠، سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

والكتابة، فكأن العلم هو مصدر لتحرير الرقاب، من أسر الكفر من جهة، ومصدر لتحرير الصغار والكبار من أسر الأمية والجهالة من جهة أخرى.

ومن ذلك أنّ الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك أمر بمحمد بن محمد بن عبد الله بن عمرو، وهو أحد أحفاد الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين:سيدنا عثمان بن عفان، وكان قد فاته أنْ يتعلّم في صغره، فأمر به أنْ يُحْمل إلى الكُتَّاب (الخلوة)حتى يتعلم القرآن مع الصبيان فآلمه ذلك حتى يقل أنه مات كمداً من ذلك[1].

وهو خير دالٍّ على أهمية عناية الدولة والمجتمع، بل بإلزامية التعليم ومحو الأمية للصغار والكبار.

وكيف لا يكون ذلك كذلك من المجتمع الإسلامي وأول ما نزل من الوحي على رسول الله ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[العلق: ١ـ].

العلماء الجامعون لجمهرة المعارف:

وعلى ذكر منهج الخلوة وما يتلوها من مناهج التعليم الديني كما يقل، فإن كان المقصود به التخصص في القرآن وعلوم الشريعة فهو مَرْضِيٌّ فيما مضى وما يستقبل أيضاً، وإلا فلا فصل في الإسلام بين علم ديني وعلم دنيوي (مدني)، فالحياة كلها لدى التوحيد مقصود بها العبودية لله تعالى، فهي كلها دين.. أمّا تسمية ما اتصل بالخلوة بالتعليم الديني إن كان يقصد به ما حدث من

---

(1) انظر: جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي "٣٨٤ـ٤٥٦ هـ"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٨٣.

ثنائية في مرحلة لاحقة فهو مرفوض، لكون الثنائية كلها بالصورة المقصودة لا تتسق وتعاليم ديننا.. وقد كان علماء الإسلام في ماضينا جمهرة معارف (موسوعيين) يجمعون سائر تخصصات العلوم، فكان فيهم من يجمع بين علوم الطب والهندسة والرياضيات وبين علوم القرآن وفقه السنة والسيرة والأصول واللغة، إلخ.. وقد ظلت جوامعنا الجامعية تخرج علماء فقهاء لغويين يملكون نواصي العلوم والمعارف السائدة في عصورهم الزاهرة، يؤلفون في مباحث الملل والنحل لإقناع من شاء، وإفحام من عانده وإقامة الحجة على من كابر، فهم كانوا على علم بما عند غيرهم، بل كانوا أعلم من خصومهم بما عندهم.

ومن علمائنا من ألَّف في الفقه وأصوله، وكان طبيباً كابن رشد ويرى أن الطبيب المؤمن العالم بتشريح الأعضاء من أعلم الناس بالله تعالى لما يراه من عجيب صنع الله في خلق الإنسان.

وقد عبّر عن هذا المعنى الدقيق أخونا الأستاذ الدكتور عبد الرحيم علي محمد إبراهيم، عضو مجمع الفقه الإسلامي ورئيس دائرة شؤون المجتمع والثقافة بالمجمع، في بحثه المعنون: "الاجتهاد الجماعي ومجامع الفقه الإسلامي، نموذج مجمع الفقه الإسلامي في السودان" يقول: (وقد ساعد الفقهاء الأوائل على ذلك المنهج الموسوعي أمران:

أولهما: تفرغ كامل للعلم، وصبر عليه، وزهد في كمالات الحياة، أعانهم على صرف الأوقات في البحث والنظر دون الالتفات إلى مشاغل اكتساب الرزق والتوسع في مطالبه.

ثانيهما: أن أنواع العلوم كانت محدودة ومعدودة بحيث يطمع المجتهد أن يلم بكثير منها، إذا امتدّ به عمر، ولم تكن المستجدات العلمية قد تسارعت

وتكاثرت علي النحو الذي نراه في هذا العصر .

ولقد وجدت على سبيل المثال في كتاب ابن رشد "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" في باب كتاب الديات فيما دون النفس هذه الفقرة[1]:

(والأشياء التي تجب فيها الدِّيَةُ فيما دون النفس هي شجاج وأعضاء، فنبدأ بالقول في الشجاج. والنظر في هذا الباب في محل الوجوب وشرطه وفي قدره الواجب، وعلى من تجب؟ ومتى تجب؟ ولمن تجب؟ فأما محل الوجوب فهي الشجاج أو قطع الأعضاء، والشجاج عشرة في اللغة والفقه: أولها: الدامية وهي التي تدمي الجلد ثم الحارصة وهي التي تشق الجلد، ثم الباعوضة وهي التي تبضع اللحم: أي تشقه، ثم المتلاحمة وهي التي أخذت في اللحم، ثم السملق وهي التي تبلغ السملق، وهو الغشاء الرقيق بين اللحم والعظم، ويُقال لها: الملطاء بالمد والقصر، ثم الموضحة وهي التي توضح العظم: أي تكشفه، ثم الهاشمة وهي التي تهشم العظم، ثم المنقلة وهي التي يطير العظم منها، ثم المأمومة وهي التي تصل أم الدماغ، ثم الجائفة وهي التي تصل إلى الجوف، وأسماء هذه الشجاج مختصة بما وقع بالوجه ومنها الرأس دون سائر البدن، واسم الجرح يختص بما وقع في البدن، فهذه أسماء الشجاج. ففي هذه الأقسام دليل على معرفة دقيقة بأنواع الشجاج وأغوارها في الرأس وهو من علم التشريح).

ويمضي صاحب بحث: "الاجتهاد الجماعي ومجامع الفقه الإسلامي، نموذج مجمع الفقه الإسلامي في السودان"، فيقول:

(وليس المانع من وجود العلماء الموسوعيين هو عجز في علماء عصرنا أو

---

(1) محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق محمد سالم محيسن وشعبان محمد إسماعيل، ٤٥٢/٢.

انشغل عن العلم والتحصيل، ولكن مزاج العصر مال إلى التخصص الدقيق وإلى تشقيق العلوم إلى فروع صغيرة بحيث يتمكن العالم من الإحاطة بدقائق المسائل في فروعه، ثم متابعتها واستقصائها، ولا يزال أهل الاختصاص المعاصرون في قلق مستمر وإشفاق أن يكون قد صدر في المنشورات بحث مما يتصل باختصاصهم، يفوت عليهم الإلمام به، ولا تزال المؤتمرات العالمية تجمع المختصين لتبادل المعلومات والمناظرة في المسائل المستجدة ليطمئن الواحد منهم إلى مبلغه من العلم وموقفه في المتابعة، ومن هنا برزت الحاجة إلى الاجتهاد الجماعي، وهو نوع من تكامل المعارف وضم الجهود والموازنة بين الأراء، حتى يخرج الاجتهاد الفقهي ثمرة نظر شامل من جميع الوجوه، وترجيح بين المتعادلات من المصالح والمفاسد).

والإمام القاضي عياض، إنما كان يعني اعتزازه بدينه وافتخاره بانتمائه العظيم إليه مع حب خالص لله تعالى ولرسوله ﷺ، حيث أنشد يفاخر الأمم والحضارات بما لديه قائلاً:

وممَّا زادَني شرَفاً وَتِيهاً ... وكِدْتُ بأخْمَصي[1] أطأُ الثُّرَيَّا
دُخُولي تَحْتَ قَوْلك يا عِبَادِي ... وأن صيَّرتَ أحْمَدَ لي نَبِيَّا

ولم يقتصر عطاء جوامعنا الجامعية على المسلمين وحدهم، بل شمل غيرهم ممن تخرج فيها بالإجازات في العلوم الرياضية والطبيعية، كما كان في الأندلس،

(1) و(الأخْمَصُ): باطن القدم وما رقّ من أسفلها وتجافى عن الأرض، وقيل (الأخْمَصُ) خصرُ القدم. الأزهري: الأخمص من القدم: الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء. والخمصان: المبالغ منه، أي أن ذلك الموضع من أسفل قدمه شديد التجافي عن الأرض. وفي الصحاح: الأخْمَصُ ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض.

حتى إن مصطلح (البكالوريوس) التي يستخدمها أهل عصرنا، يقول أستاذ اوروبي متخصص في الآداب الأندلسية عنها، إن الكلمة ليست ذات أصول اوروبية، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين من الأوروبيين بل هي تحريف لعبارة معروفة بالعربية هي الرواية بحق الإجازة!

وما علينا من بعد إذا قلنا مقالة معتد بنعمة الله تعالى عليه فيما آته مما يستوجب حمداً لله تعالى وشكراً جزيلاً: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ (يوسف:٦٥) و له أن ينشد:

فيا لائِمِي دَعْنِي اُغَالِي بِقِيمَتِي فقيمةُ كلِّ النَّاسِ ما يُحسِنُونَه

منهج التعليم عند أهل البصائر والحكمة:

والتعليم في الخلوة وما يتصل بها من حِلَقِ التعليم الأصلي كان يقوم به شيوخ من أهل البصائر والحكمة، وتعلمنا في رحاب الوالد في طفولتنا الباكرة، ونحن في الخلوة، أن المقصود من طلب الشيء هو ما يحقق المنفعة المرجوة منه، عملاً بالنيّات والمقاصد، وعلى سبيل المثل فإنه إذا طلب منا إحضار الإبريق لكبارنا فالمقصود من هذا الطلب المنفعة المرجوّة من الإبريق بكونه ممتلئاً ماءً. وإذا طُلب منّا ليلاً إحضار السراج (الفانوس) فالمقصود إضاءته.

وعُلّمنا كذلك أنه لا يمنع من الخشوع في العبادة الخالصة لله، ونحن مثلاً في صلاتنا متجهين إلى قبلة الصلاة، أن نقطعها من أجل إنقاذ حياة ذي روح من إنسان أو حيوان منتفع به. وأنه لو ضاع منا نقد مالي كان علينا البحث عنه، وإن بذلنا مثل قيمته في هذا البحث، وذلك كله من أجل إدخاله في دورة

التداول والمنفعة العامة. وقد انتفعنا بهذا التدريب العملي عند طلب العلم ودراسة المباحث الفقهية والأصولية.

إن العلماء الربانيين ينفعون الناس حيثما كانوا، ويبقى تأثيرهم في تلاميذهم بما علّموه وكانوا فيه قدوة حسنة على منهاج النبي ﷺ، وإن منهم من كان إذا رُئيَ -بمجرد الرؤية- ذكُر من رآه بالله عز وجل.. ليس هذا فحسب بل إن صورتهم لتتراءى لنا في مخيلتنا حين تمر بنا مواقف مخصوصة نقتدي بهم فيها، كما يحدث لنا في سفرنا أو حركتنا بوسائل المواصلات الحديثة.. ومن ذلك أننا نستحضر كيف أن شيخنا في الخلوة كان كلما اعتلى ظهر دابته استفتح دعاءه لله تعالى بتلاوة: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ١٣] ويواصل في دعائه المأثور: (اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)[1] اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، ومثلما كان دعاؤهم المصحوب بحالة من الخشوع مبعثاً لتأثرنا بما يشيع في نفوسنا السكينة، فقد انتقلت هذه الروحانية المتعدية من خلال تلاميذهم إلى غيرهم، وذلك كما جرى في أحد المواقف التي مرت بنفر منا في زيارة لنا إلى إحدى الدول، حيث كنا نستغل نمط المركبات المعلقة المتحركة على سلك

(١) وهذا من الأحاديث التي صحت عنه ﷺ، فقد رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ). وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: (آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ). أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم ٢٣٩٢، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره. ومعنى: مقرنين: مطيقين، والوعثاء: الشدة، والكآبة بالمد: هي تغير النفس من حزن ونحوه، والمنقلب.

كهربائي للعبور بين جبلين فأصاب الفزع من كان في صحبتي ، فعمدت إلى إشاعة الطمأنينة في قلوبهم بذكر الله تعالى ، فدعوت بذلك الدعاء ، ولسرعان ما سكن الروع وهدأ الفزع.. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨]..

اللغة والتجويد في المنهج المتَّصل بالخلوة:

وكان من يحفظ القرآن العظيم في الخلوة ينل قسطاً من علوم العربية والشريعة؛ ولهذا كان كثير من المزارعين قد سبقت لهم من الله تعالى الحسنى والعناية فحفظوا القرآن العظيم كله أو قاربوه، وتفقهوا في الدين بما تيسر من التفسير وعلوم القرآن والفقه والعربية، ونفعهم كثيراً أن طلبهم للعلم لم يكن إلاّ لتصحيح العمل وتجويد الأداء.

ولهذا كان التكامل والاتِّساق بين ما ندرس من علوم ومعارف تتآخى كلها، وصُبغت بروح التديُّن حتى إن دروس اللغة العربية كانت موجهة بأدب الدين في صدق الإيمان وحسن الخلق والزهادة والقناعة. وتُعدُّ ألفية ابن مالك، واحدة من تلك المتون التي كان يترقى في دراستها أهل الخلوة. متناً بعد آخر في ترتيب دراسي خاص مرَّت عليه التجارب المتطاولة والمتوالية في دروس حِلَق العلم بالجوامع، وحتى إن الكتب التي يدرسها اللاحقون هي المراجع نفسها التي ظلت متوارثة جيلاً فجيلاً بل قرناً فقرناً. وهي طريقة في التعليم مفيدة تقفك على دقائق العلوم وكليَّاتها، بدءًا بالتعريف اللغوي والاصطلاحي، مع دراسة محترزات التعريف وقواعد المعرفة

والمبادئ العشرة[1]، وهي التي يجمعها قولهم:

إنَّ مبادي كلِّ فنٍّ عَشَرة (الحدُّ) و(الموضوعُ) ثم (الثَّمَرة)
و(الفضلُ) و(النِّسْبَةُ) ثم (الوَضْعُ) و(الاسمُ)(الاسْتِمْدَادُ)(حُكْمُ الشَّرْعِ)
(مسائلُ) والبعضُ بالبعضِ اكْتَفَى ومن دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

ولا أنسى أن هذه الأبيات بعث إليَّ بها شيخ فاضل[2] وهو من أصحاب الوالد وأهله، رحمهم الله تعالى، وقد كان حريصاً على توجيهي للانتفاع بالعلم والأدب والاستقامة في رسائله الرقيقة كرِقَّة مشاعره، وقد نصحني بالاستمرار في طلب العلم، حيث إن طالب العلم إن أعطى العلم وقته كله، أعطاه العلم بعضه، وإن أعطى العلم بعض وقته، لم يعطه العلم شيئاً.

أمَّا هذه المبادئ العشرة فيشرحها كل مؤلف بحسب العلم أو الفن الذي يكتب فيه، وعلى سبيل المثال فهذا كتاب في التجويد يشرح فيه مؤلفه مفردات هذه المبادئ فيقول:

الأول: حده:

وحد التجويد تعريفه، وعليه فالتجويد مصدر جوّد تجويداً، والاسم منه الجودة ضد الرداءة، وهو في اللغة التحسين، يُقال: جوَّد الرجل الشيء إذا أتى به جيداً، ويستوي في ذلك القول والفعل.

ويُقال لقارئ القرآن الكريم المحسن لتلاوته :"مُجَوِّد" بكسر الواو.

---

(1) انظر الشيخ عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، ط٢، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ٤٥/١-٤٩.
(2) انظر الاستطرادات، رقم (٥).

وفي الاصطلاح: إخراج كل حرف من مخرجه وإعطاؤه حقه ومستحَقه - بفتح الحاء - من الصفات.

الثاني: موضوعه:

هو الكلمات القرآنية، من حيث إعطاء حروفها حقها ومستحقها كما مرّ، من غير تكلف ولا تعسُّف في النطق.

الثالث: ثمرته:

هي صون اللسان عن اللحن في لفظ القرآن الكريم حال الأداء .

الرابع: فضله:

هو من أشرف العلوم وأفضلها لتعلقه بكلام الله تعالى.

الخامس: نسبته من العلوم:

هو أحد العلوم الشرعية المتعلقة بالقرآن الكريم.

السادس: واضعه:

أما الواضع له من الناحية العملية فهو سيدنا رسول الله ﷺ، لأنه نزل عليه القرآن من عند الله تعالى مجوَّداً، وتلقاه صلوات الله وسلامه عليه من الأمين جبريل عليه السلام كذلك، وتلقته عنه الصحابة وسمعته من فيه الشريف كذلك، وتلقاه من الصحابة التابعون كذلك، وهكذا إلى أن وصل إلينا عن طريق شيوخنا متواتراً، ولا ينكر هذا إلا مكابر أو معاند.

وأما الواضع له من ناحية قواعده وقضاياه العلمية ففيه خلاف، فقيل أبو الأسود الدؤلي. وقيل أبو عبيد القاسم بن سلام. وقيل الخليل ابن أحمد، وقيل غير هؤلاء من أئمة القراءة واللغة.

السابع: اسمه:

علم التجويد.

الثامن: استمداده:

جاء على كيفية قراءة رسول الله ﷺ، ثم من كيفية قراءة الصحابة من بعده والتابعين وأتباعهم وأئمة القراءة إلى أن وصل إلينا بالتواتر عن طريق شيوخنا، واتصال السند من خصوصيات هذه الأمة.

التاسع: حكم الشارع فيه:

هو الوجوب العيني على كل مكلَّف من مسلم ومسلمة يحفظان القرآن كله أو بعضه ولو سورة واحدة، لثبوت ذلك بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

العاشر: مسائله:

وهي قواعده كقولنا: كل نون ساكنة وقع بعدها حرف من حروف الحلق يجب إظهارها ويسمى إظهاراً حلقياً، وكل حرف مد وقع بعده ساكن أصلي وصلاً ووقفاً يُمد مداً طويلاً ويسمى مداً لازماً... وهكذا، وقد أشار إلى ذلك ابن الجزري.

وما نسي الحوار أنه لم يكن مثل كثير من زملائه يتوق إلى ما كان متاحاً لهم من وظائف القضاء الشرعي ومناصب التعليم أو نحوها في المؤسسات .. بل كانت أمنيته إذا أكمل طلب العلم أن يتفرغ للعبادة والدعوة إلى الله تعالى، شأنه في ذلك شأن سلف صالح.. وعلى كل حال ظلت الغاية واحدة، وهي تحصيل العلم النافع وأداء العمل الصالح، وإخلاص النية لبلوغ وجوه الصواب، وذلك فيما نحسب أنه الصدق والحق، والعلم عند الله تعالى..

ونسأله تعالى أن يجعل عملنا كله دعوة إلى الله تعالى ابتغاء مرضاته بالاهتداء بهدي نبيِّه ﷺ، الذي أمرنا الله تعالى بالاقتداء به: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، والذي أقامه جلّ وعلا لهدايتنا فقال في شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢-٥٣). وذلك كله دون ضنٍّ ولا منٍّ كما قال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (التكوير: ٢٤)،

وقال عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (الحجرات: ١٧).

ونعوذ بالله تعالى من الدعوى، ثمّ ندعو بالمأثور عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: (اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً).

وكانت المتون ومنظوماتها المعنية بالإشارة السابقة تجمع إلى الأحكام والقواعد جملة آداب مرضية، ويعجبني منها ما لا ينسى ذكره من مثل حسن الابتداء في ألفية ابن مالك، حيث يقول:

كلامُنا لفظٌ مُفِيدٌ كاسْتَقِم واسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكَلِم

فإنه قد جاء بالاستقامة التي هي نصف الإسلام وأساس الخيرات، وقد جاء الأمر بها في القرآن العظيم في خطابه للنبي ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ (هود: ١١٢)، أما جزاء من استقاموا على أمر الله تعالى فكما يصف

القرآن: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(فصلت:٣٠)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٣).

ومثل آخر من الألفية في حسن استخدام الأمثلة المذكّرة بالله تعالى، والدالة على الخير، وذلك في باب المبتدأ والخبر حيث يقول:

والخبرُ الجزءُ المُتِمُّ الفائدَهْ   كاللهُ بَرٌّ والأيادِي شاهدَهْ
ومفرداً يأتِي ويأتِي جُمْلَةْ   حاويةً مَعْنَى الذي سِيقَتْ له
وإن تكن إيّاه معنىً اكتفى   بها كنُطْقِي اللهُ حَسْبِي وكَفَى

العلوم الدينية العامة:

هذا ولما كان التوسع في دراسة المتون والمنظومات إنّما يأتي في مرحلة لاحقة بعد إجازة الحفظ، فإن خلوتنا كانت مع اقتصارها على حفظ القرآن دون شغل وقت الحيران بغيره، كانت تسمح للمتقدمين في الحفظ أن ينالوا قسطاً مما تمس إليه الحاجة من علوم الدين والعربية، ولم يكن يشغل وقتنا استيعاباً غير القرآن العظيم، حفظاً وتلاوة وذكراً.

وكان شيخنا نفسه، الذي يقرئنا القرآن، يحب العلم ويذاكره وهذا دأب العلماء في مواصلة طلب العلم ومذاكرته، وكثيراً ما ينشدون من محفوظاتهم:

من نالَ العِلْمَ وذاكَرَهُ   حسنتْ دنياهُ وآخِرَتُه
فأدم للعِلْمِ مذاكرةً   فحياةُ العلم مذاكرتُه

ثم صار شيخنا يلازم مجالس السيد الوالد رحمهما الله تعالى، وربما اصطحبنا معه إلى بعض تلك المجالس بعدما قاربنا التخرج، ولم يكن الجيران عندنا يشتغلون بحفظ الموالد والأناشيد والقصائد بل كان ذكرهم جميعاً القرآن نفسه، ولم تتعدَّ الأذكار بعد الباقيات الصالحات في أعقاب الصلوات، التهليل المحفوظ بصيغة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة نفس عدد ما وسعه علم الله)، وذلك بتأثير الطريقة، أو فقل المدرسة التربوية للإمام الفقيه العلامة السيد أحمد بن إدريس الشريف الإدريسي الحسني (ت ١٢٥٣هـ) رحمه الله تعالى، وكان أظهر رجالها عندنا من أهل العلم والذكر.

استخلاص حول منهج الخلوة:

ومنهج الخلوة كان البيئة التعليمية والاجتماعية التي حفظت لمجتمعاتنا اعتصامها بحبل الله المتين، واستمساكها بالقيم الفاضلة. يقول شيخنا الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة أبو بكر: (وكان المسيد هو البوتقة التي انصهرت فيها المجتمعات المحلية المتباينة في ثقافتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وقيمها. وكانت الخلوة هي الأساس في تنشئة الأجيال السودانية طوال القرون الماضية، وكانت وما تزال، مكاناً للتعليم الذي يستمر من المهد إلى اللحد، أو التعليم مدى الحياة، لا تعرف قيداً للالتحاق بها، فتقبل الصغير والكبير، وتقبل في كل الأوقات، وتخرِّج في كل الأوقات، وتعمل في كل الأوقات، لا

تعرف حداً لعدد الملتحقين بها، ولا تعرف عدداً من السنوات للبقاء فيها[1].

ولله تعالى الفضل والمنة على حسن البداية بالمسيد، حيث تعلم التلاميذ القراءة والكتابة، وحفظوا قدراً من القرآن الكريم، وربما بلغوا به الختم الأول، ثم التحقوا من بعد بالمدارس فكان ذلك سر نجاحهم فيها وقوتهم أيضاً، وذلك مما عصمهم من فتنة الاستخراب (الاستعمار) ومن والاه إذ حفظ القرآن ناشئتنا من إغراءات الداعين للانفصام عن الأصول العاصمة.

بوارق الذكرى ولواعج الأشواق:

وهي حقاً لواعج من الأشواق حارقة للفؤاد من فرط الحب، كما يدل لسان اللغة، وكما يدل لسان الحال.. فاللاعج هوىً محرق، والمشوق لذكرى تلكم الأيام الزاكيات تكتنفه اللواعج من كل أقطاره.

وقد ألفينا أنفسنا مع هجوم هذه الذكريات حول الخلوة ومنهجها التعليمي نتواجد حتى يبلغ بنا الوجد مداه، أو هو تواجد المحبّ المصطلم، أو هو كما قال محبّ في مثل هذا المقام:

قُربُكم مثلُ بعدكم   فمَتى وقتُ راحتي؟

---

(1) أ.د. يوسف الخليفة أبوبكر، بحث (دور الخلوة في التعليم الأساسي) المقدم في مؤتمر سياسات التربية والتعليم، قاعة الشارقة – الخرطوم، قاعة الشعب – أم درمان، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

وكـان ممّـا حمـل عليه الشوق يوماً أهزوجة أخرى في ذكر القرآن وذكريات الصحبة المباركة في تعلمه، تقول:

اقرأ القرآنَ واخشَع وتدبّر

وابكِ والنّاسُ نيامٌ غافلون

إنّه الموقفُ واللهِ شديدٌ

يقتضي زاداً من الخير رَطِيب

وهي أيامٌ من العُمْر قَصِيرة

هل تذكرتَ صِحاباً سَبَقُونَا

لنعيم الآخرة

والحيلةِ الفاخرةِ

ليس من لُقيا سِوَى يومِ التناد

رحم اللهُ أحبائِي الأُلى

قد أعَانُوني على دربِ الرُّشاد

ومن لنا مع بوارق الذكرى بما يطوي لنا المكان والزمان بأكثر مما كان يرجوه محب مشتاق لم يرَ في زمانه أسرع من طيران القطا ليصل إلى محبوبه:

أسِرْبَ القطا هل من يعيرُ جناحَه — لعلي إلى من قَدْ هَوِيتُ أطِير

فجاوبني من فوق غصن أراكة — ألا كلنا يا مستعير نعير

وأيُّ قطاةٍ لم تُعِرْكَ جناحها — تعيشُ بذُلٍّ والجناح كسير

وهَوِيتُ من الهَوَى، وهو العشق، وذلك لأن هَوَى النفس: إرادتها. وهَوِيَ بالكسر يَهْوَى أي أحَبَّ. وإذا أسند الفعل الماضي لضمير المتكلم بمعنى العشق فهو "هَوِيتُ" بخلاف "هَوَيتُ" بمعنى السقوط[1].

ولعله يكفينا نحن لبلوغ ما نبتغيه أن نرى ما نُحب في رؤيا صادقة كفلق الصبح على شاكلة ما رأى الإمام الصرصري[2] وعبّر عنه في نشيد المحبة النبوية:

يَوْماً أراكَ به فلستُ أصُومُه — فالعيدُ عندِي ثابتٌ تحريمُه

ودجىً أميطَ لَنَا لثامُ ظلامه — بصباحِ وصلٍ منك كَيْفَ أقُومه

لكن أرى فَرْضاً عليَّ مُعَيَّناً — نظري إليك مع الزَّمانِ أديمُه

حتى أروِّي من جمالك مُهْجَتي — وتزول أسبابُ الهوَى وهمُومُه

وحتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فسنظل في ظلال هذه الآمال في سباق مع الأجل: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:١١).

إنّ الشوق إلى أيام الخلوة هو حنين إلى أجمل ما نستذكره من براءة الطفولة

---

(1) انظر: لسان العرب، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، دار الفكر، بيروت (بتصرف).
(2) انظر: الإحالات والاستطرادات رقم (٦).

وصفاء اليفاعة، ونحن في صحبة القرآن العظيم، نحفظه ونتعلمه ونتعبد به، التماساً للنعمة في الدنيا وإحرازاً للنعيم في الآخرة.. ولئن كان صيد الخواطر وقيد الأوابد تصويراً لحياة مجتمعنا عصراً ومصراً، فهو فوق ذلك دلالة ناصعة على قوة التأثير الروحي للقرآن الكريم على كل متلقٍ لعلومه على اختلاف الديار والأعمار.. ولا يغيِّرن من هذا التأثير القوي النافذ للقرآن الكريم اختلاف في الوسائل التعليمية، أو تباين في المناهج التربوية، حيث لا يخلو عصر من الأعصار أو مصر من الأمصار من علماء أفذاذ يبثون بركة القرآن الكريم في صدور تلاميذهم، أو ينشرون عبق السيرة النبوية في سلوك حوارييهم.. فالذي يحدث هذا التحول المبارك ويؤجج هذا الشوق النبيل، هو الذكر الحكيم، الذي يظل يمنح حافظه وقراءه ومعلميه ومتعلميه على مر العصور وكر الدهور منهلاً لا ينضب، وقوتاً لا ينفد، سواء لغذاء قلوبهم أو لنماء عقولهم.

وعلى قدر ما تيسر لكل قوم في كل مقام من الوسائل التعليمية وما يتاح من المناهج التربوية، مما يدور حول مشكلة القرآن، فإنّه، وهو النور المبين والحبل المتين، يظل يمد هؤلاء وأولئك من عطائه الموصول غير المحظور، ومن ثمره الوافر الكامل غير الممنون.. فلتأخذ الخلوة منهجها الموروث في البقاع التي ما فتئت بيئتها قروية، أو في الأصقاع التي ما انفكت مجتمعاتها بدوية، ونعِمّا هي الحياة البادية بفطرتها السليمة، والقرآن لها مُواتٍ من منهاج الفطرة القويمة.. أمّا إذا كانت الحياة حاضرة، ووسائل التعليم متطورة، فلتأخذ المدارس القرآنية بأحدث التقنيات،

وسيكون القرآن موافياً لها، بأرفع المعرفيات.. ومن فاته منهج التعليم بتلك الوسائل للقرآن الكريم فيلحق بمنهج التعليم الحديث حافظاً تلاءً متفقهاً لهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد والتلاوة.

ولا ينطوي حنيننا المشوق إلى ذكريات الخلوة على دعوة إلى أنْ نستل ماضينا كله بكل صروفه وظروفه لنستعيده في حاضرنا بكل متغيراته ومحدثاته..فلا بد للوسائل من أن تتجدد على مر العصور، وحسبنا أن نكون حافظين لثوابت الأصول، ولقد يسّر الله تعالى اليوم من الوسائل التعليمية ما يمكّننا من استمداد معرفتنا وخبرتنا من المشكاة القرآنية المنيرة، وهي تنجب في كل حين جيلاً قرآنياً مستنيراً مستضيئا بنور القرآن العظيم.

وهذه أشواق،نسأل الله أن يبلّغ أصحابها برحمته فضلاً منه ونعمة ما نرجوه لنا ولهم من صواب العمل وإخلاصه وقبوله وحسن الختام مع نيل المرام.

اللهم زدنا ولا تنقصنا،وأكرمنا ولا تهنا، اللهم إنا نعوذ بك من النقصان بعد الزيادة، ونعوذ بك من السلب بعد العطاء، ونعوذ بك من الحَوْر بعد الكور*.

* الحور بعد الكور: الفرقة بعد الاجتماع.

شيوخ الخلوة

الشيوخ والقدوة الحسنة للمجتمع:

كان المجتمع كله يلتفّ حول الخلوة؛ فكان شيخها يؤمهم في الصلاة، ويصلح ما بينهم من الصلات، ويتولى تزويجهم، ويسمي أولادهم، ويعلمهم، ويؤدِّبهم، ويصحبهم، عائداً مرضاهم، ومشيعاً جنائزهم، آمًّا صلاتها، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ بل هو يملك حق إزالة المنكر بيده، من غير نكير عليه ولا معارض له فيما يأمر به أو ينهى عنه، ويُذكِّر بالله تعالى حتى يبلغ بالمجتمع طهارة المظهر العام، مع نقاء السريرة والاستقامة على أمر الله تعالى في ائتلاف بين المظهر والمخبر والسر والعلن.

والشيخ قد كان في موضع الأسوة والقدوة، وهو يسعى لتطبيق الفضائل التي يدعو إليها، يقترن العلم بالعمل، مع الإخلاص والتجرد ونكران الذات ومغالبة مطامع النفس وشهواتها.. وعلماء التربية الروحية وتزكية النفوس يتناصحون فيما بينهم على نحو ما أُثر عن أحدهم يقول: (لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً). ومن لطائف المعارف البليغة أيضاً قول بعضهم: (لو أن شجرة اشتهت غير ما به صحة وجودها وكمال منفعتها فلأذيقت طعم نفسها لأكلت نفسها وذوت).

وعليه، فإنه لا تغني الكتب وحدها عن إرشاد الناس، بل هم لا يستغنون عن أشياخهم، يدلونهم على الله تعالى بلسان الحال والمقال، أو كما يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه الشهير (وحي القلم) من مقالة (الأسد): (والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب

البتّة وإن كان كل أهله علماء؛ وإن كان في كل محلة منه مدرسة، وفي كل دار من دوره خزانة كتب؛ فلا تغني هذه الكتب عن الرجل، فإنّما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثير على الناس أقوى من العلم ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها، ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلاً فاضلاً بأصدق معاني الفضيلة، وخالطوه وصحبوه، لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة، وأجدى على الناس منها، وأدلّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب، ولهذا يرسل الله النبي ﷺ مع كل كتاب منزل ليعطي الكلمة قوة وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائل الإنسانية)[1].

وقراءة العلم على شيخ مجاز هي غير أن تكتفي بمطالعة مسائل العلم من خلال الكتب، وكم مسألة علمية ضاق عنها الفهم بالمذاكرة وحلها، وكان الفتح فيها بالتلقي المباشر عن شيخ عالم.

وبمثل هؤلاء الرجل وعملهم المبرور كان الإصلاح الاجتماعي والنماذج التي حفظت الدين ورعت القيم الفاضلة..

والشيخ إلى جانب ذلك يمثل نظام المعلم الواحد، يتلقى تلاميذه عليه كل معارفهم، ويتحلقون حوله في دائرة، وينالون تعليمهم بغير مشقة ولا عنت ولا كلفة مالية يعجز عنها الفقراء. و ظهر الآن في عصرنا هذا اتجاه للأخذ بهذه الوسيلة التربوية من جديد، وقد نظر بعضهم إليها باعتبارها اكتشافاً جديداً !!

---

(1) مصطفى صادق الرافعي، كتاب (وحي القلم)، ضبطه وصححه وعلّق على حواشيه محمد سعيد العريان، ط دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٣/٤٥ وما بعدها.

ذكريات خاصة عن المشائخ الأجلاء:

وكنّا نقصد في طلب العلم وقراءة القرآن خلوة الشيخ صالح علي الأزهري، رحمه الله تعالى، وكانت خلوته في ماضيها معمورة مشهورة تُشدّ إليها الرحال، لحفظ القرآن الكريم ولتلقي علوم الشريعة واللغة العربية في رحاب هذا الشيخ، الذي علا من الأزهر الشريف عالماً يُشار إليه بالبنان، وقد سارت بذكره الركبان[1].

وتخرّج في هذه الخلوة النموذجية أعلام كبار من العلماء والأئمة والمعلمين والشيوخ، وكان والدنا - رحمه الله تعالى - ممّن جاءها لطلب العلم ولازم هذا الشيخ وأجيز به وتخرّج في هذه الخلوة، وكان قد جاءها بعدما حفظ القرآن العظيم في خلوة آبائه المشهورة في جزيرة مقاصر على يد الشيخ محمد إدريس المعروف بحمودي[2] رحمه الله تعالى.

وكان معظم شيوخ الخلوات المشهورة على امتداد المنطقة من خريجيها، ولكن صار عُمّارها فيما بعد من أبناء القرية نفسها وهي (إرْتِدِي) المتصلة بمدينة دنقلا وما جاورها من قريب. وكان شيخنا الذي أقرأنا القرآن من خريجي هذه الخلوة نفسها، وهو الشيخ محمد إبراهيم الطيِّب الحدَّاد رحمه الله تعالى، وقد ورث "صنعة الحدادة " التي نسب إليها عن آبائه، وظلّ يمتهنها ويعتمد في معاشه عليها، لا يشغله ذلك أبداً عن أدائه الدؤوب لرسالته القرآنية الفذّة.

ومن تلك الذكريات أنّ شيخ خلوتنا كان حريصاً ألا ينسى أحد خريجيه

---

(1) انظر الاستطرادات، رقم (٧).

(2) وكان هذا الشيخ تلاءً للقرآن العظيم، يقوم الليل كله لا ينام، كما يقول عنه حفيد له هو نفسه من أهل القرآن الكريم، ثم يذكر أمثلة لخلق البر والوفاء بين الشيخ وتلميذه بعدما صار كبيراً ذا مقام في المجتمع، رحمهم الله جميعاً وأجزل لهم المثوبة في دار البقاء والنعيم المقيم.

القـرآن بعـد حفظه، فكان يتابع اخبارهم و يثني على المحافظين على وردهم من القـرآن وحفظه، بل كان لا يرضى أن يغيّر احدهم حرفاً يخالف فيه رواية ورش عن نافع، كما أنّ شيخنا كان لا يرى مقاماً لعالم مهما كان لو لَحَن في تلاوته أو استشهاده بآية.

وعـلى ذكـر قـراءة شيخنا فقد كان إذا تلا القرآن خشعت لتلاوته القلوب لِـمـا كـان يمـتاز بـه مـن وقـار وخشوع، وكان شيخنا يحسن التجويد والإتقان للقراءة والإقراء، وعلمنا في صغرنا بالتلقين الصحيح رواية ورش عن نافع.

أمـا هـو فقد كان درس التجويد وعلوم القرآن، نظرياً وتطبيقياً، من خلال كتـب مـتداولة بـين شـيوخنا بكـثرة كالمقدمـة الجزرية والشاطبية، وهي: (حرز الأمـاني ووجـه التهاني في القراءات السبع) وكتب خطية أخرى.. ثم إننا لـمّا قـرأنا التجويد دراسة نظرية أدركنا كم أحسن إلينا شيخنا بما لقّنَنَا من المخارج الصـحيحة لـلحروف وأقـرأنا بمـا يوافـق ما انتشر لاحقاً من أحكام التجويد وبذلـك وجدنا تطابقاً بين ما درسناه بِأَخَرَةٍ في كتب التجويد وما تعلمناه تلقيناً وكـتابة عـلى الألواح من إملاء الشيخ من حفظه دون مصحف يعتمد عليه في الإمـلاء ومـن غـير مصاحف متداولة بين الجيران يومئذ. بل كانوا يستظهرون القـرآن العظـيم في صـدورهم ويعاودونه بالتلاوة والمراجعة وتوثيق الحفظ، لا يزاحم القرآن سواه، وهكذا كان منهج التلقي المتوارث عن السلف الصالح.

وكانـت المصـاحف عـلى قلـتها مخطوطـة لا يملك النسخة منها إلاّ بعض الحُفَّـاظ ولـربما تـتداول بعـض الأسـر مصـحفاً مخطوطـاً يعـود تاريخه إلى قرن أو أكثر، وربما كان المصحف مطبوعاً بتاريخ متقدم .

توقير التلاميذ لمشائخهم:

وكم ترى من أحوال الأخيار، أو يبلغك من خبرهم، كيف أنهم يحاسبون انفسهم على انهم بعد كل هذه الأنفاس الطاهرة التي صحبوها وعاشوها، والنفائس التي حصلوا عليها، وهم يرون لورعهم انهم لا يكادون يزيدون على حالتهم التي كانوا عليها، ويرون من تواضعهم وتوقيرهم لسلفهم الصالح البون الشاسع بين الجيلين. ومن الأمثلة التي تفيض تواضعاً لله تعالى وانكساراً حال الإمام النووي[1]، حيث قال بين تلاميذه ينشد مما ينسب للإمام الشافعي وهو يعبر عن ورعه:

أُحِبُّ الصالحينَ ولستُ منْهم ... وارجو ان أنالَ بهم شَفَاعَه

واكرهُ مَنْ تجارتُه المعاصي ... وإن كنّا سَواءً في البِضَاعه

ولكنّ تلاميذه العارفين لمقامه قالوا له:

تُحِبُّ الصالحينَ وأنتَ منْهم ... مُحِبُّ القومِ يلحقُ بالجماعه

وتكرهُ مَنْ تجارتُه الْمَعاصي ... حماكَ اللهُ من تلك البِضَاعه

وعلى ذكرنا للإمام النووي فإن له مكانة خاصة في قلوب مشايخنا، يحبونه ويرون بركة مؤلفاته خاصة في السنة النبوية من "كتاب الأربعين النووية"، "ورياض الصالحين"، و"كتاب الأذكار".

---

(1) وهو يحي بن شرف الدين بن مرّي و كنيته أبو زكريا(٦٧٦هـ). عرف بالزهد والورع، له تآليف جليلة في السنة و علوم الحديث والفقه، أشهرها رياض الصالحين، والمجموع، والأربعين حديثا (النووية)، انظر (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين للعلامة محمد بن علان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ / ١٩٩٤م، ١/١٢-١٣.

و قد قيل: إنّ (الإمام النووي) كان هو مراد الشيخ الإمام ابن مالك [*] في ألفيّته حين رآه مقبلاً على مجلس درسه فقال:

وهـل فَـتىً فـيكم فما خِـلٌّ لـنا ورجـلٌ مـن الكـرامِ عـندنا
ورغـبةٌ في الخـير خـيرٌ وعمـلٌ بـرٌّ يـزينُ ولـيُقَسْ مـا لم يُقَـلْ

وهكذا كان تأثير هذا الإمام عظيماً بعلمه وأدبه.. ومما يتردد في مجالس أهل العلم من أخلاق العلماء أن أحدهم حمله الوفاء والحب في الله تعالى أن يعقد نية سفر في الطاعة لزيارة شيخ عالم، كما حدث من الإمام السّبكي صاحب كتاب "طبقات الشافعية" ، فإنه سافر من مصر إلى الشام من أجل لقاء الإمام النووي، ولما وجد أنه انتقل إلى رحمة الله تعالى زار دار الحديث حيث كان يقيم الإمام النووي ويدرس ويؤلف، وأنشد الإمام السبكي من بعد يقول:

وفي دارِ الحديـثِ لطـيفُ معـنىً عـلى بُسُـطٍ لهـا أصْـبُو وآوِي
لعلّـي أن أمـسَّ بِحُـرِّ وجهـي مـكانـاً مَسَّـه قـدمُ الـنَّوَاوِي

(*) هـو الإمـام أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله بن مالك الطائي نسباً، الشافعي مذهباً، الجياني منشأً نسبة إلى جيّان بالأندلس الدمشقي، المتوفى سنة ٦٧٢هـ، وهو ابن خمس وسبعين. يقول عنه الشيخ الأخضري في حاشيته على شرح ابن عقيل للألفية: "وكفاه شرفاً أن ممن أخذ عنه الإمام النووي رضي الله تعالى عنهما ويقال إنه عناه بقوله في المتن (ورجل في الكرام عندنا" انظر حاشية الخضري، تأليف الشيخ محمد الدمياطي الشافعي الشهير بالخضري، على شرح الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل لألفية الإمام ابن مالك، الجزء الأول ، الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م، ص ٧ ..

ويذكر الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء في سيرة عبد الله ابن المبارك كيف أن أحد العلماء زار قبره واعتبر بهذه الزيارة فقال:

مررت بقبر ابن المبارك غدوة

فأوسعني وعظاً وليس بناطق

وقد كنت بالعلم الذي في جوانحي

غنياً وبالشيب الذي في مفارقي

ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً

إذا هي جاءت من رجال الحقائق

وهكذا تكون الزيارة الشرعية للاعتبار وتذكر الدار الآخرة مع ما يصحب ذلك من صالح الدعاء عند زيارة الموتى والمقابر..

وما أحسن الاعتبار بالهدي النبوي حيث كان ﷺ يزور القبور راكباً أو ماشياً ويدعو لأصحابها، أهل البقيع، وقد كان مجاوراً للمسجد النبوي، أو عند زيارته لشهداء أحد، وكانت هذه الزيارة سنة راتبة في حياته المباركة، داوم عليها على مدى ثمانية أعوام منذ كانت غزوة أحد إلى أن التحق بالرفيق الأعلى.

وكان ﷺ في زيارته للمقابر يدعو لأصحابها كما قال: (**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ**)[1].

---

(1) أخرجه مسلم، باب الصلاة على القبر، ٢٦/٧.

وعلى نهج الإمام ابن القيم الجوزية الذي كان كلما أعجبه نظم مما مدح به شاعر ممدوحه يقول: ورسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلَى به، وهكذا فإننا نحيل كل مدح عظيم إلى الممدوح بالخلق العظيم في القرآن العظيم، وهذا مقتضى الحب المشروع المشفوع بحسن الاتباع لسنته المطهرة. كما أمرنا القرآن الكريم: (**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**) [آل عمران: ٣١]. ومالنا إذاً لا نلهج بالمهج والألسن مع الشاعر الحكيم الذي قال:

ما إن مدحت محمداً بقصيدتي ... لكن مدحت قصيدتي بمحمد

وكذلك فإنّ كل مدحٍ لعَلَمٍ من أولئكم الأشياخ، يتعدى إلى سائرهم علمتهم وخاصتهم، وذلك لاتفاقهم في المنهج، والسمت، وعلى مقدار ما كان اقتفاؤهم لأثر النبي ﷺ.. وهذه الأبيات التالية (الحوار) صادق يصف شيخه فحقيق أن يوصف بها شيخ الخلوة حيثما كان:

يا جبيناً مجلّلاً بالضياء ... قد عَنَى خاشعاً لرب السماء

تحته مقلتان ما إن تداعت ... هزة الوجد فاضتا بالبكاء

ولسان ما انفك رطْباً ندياً ... يا له من ذاكر ومن تـلّاء

قيل لي ما وراء هذا التداني ... من حمى فسطاطه بالصفاء

قلت من حبه الشفيع المُرجّى ... صفوة الخلق مصطفى الأنبياء

قيل ماذا وراء سير حثيث ... في طريق محفوفة بالعناء

قلت إني وجدت أعلى طلابي ... عيلماً قد ملأت منه وعائي

من إمام التعليم حقاً وصدقاً ... جَدَّ سيرى إلى إمام الدعاء

وفاء عظيم لصحبة مباركة:

وهكـذا يظـل العـلماء الربّانيون يؤثرون في الناس بسيرتهم الحسنة حتى بعـد رحيـلهم للـدار الآخـرة.. ومن ذلك أنَّ أحد هؤلاء الأفاضل كانت تجمعه صـلة روحـية وعلمـية وأخويـة بأشـياخـه وإخوانـه فـي الله تعالى، فلما انتقل بعضـهم إلى دار الـبقاء، ظـلّ هـو عمـراً مديداً يعمد إلى الدعاء لهم، فيما يشبه الـورد الـيومي مـع مداومـة الصـلة بأرحامهم.. بل إنه أوصى بعض أبنائه بأن يـتعهد تلـك السـنة في الدعاء لتلك الصحبة الفاضلة من أشياخه وإخوانه في الله تعالى[1].

وكان هؤلاء الشـيوخ الذين عرفناهم أمثلة صالحة للاقتداء بـها، كما كانوا خـير مـن يـرعون حقـوق الصـحبة ويؤدون واجبات الأُخوّة .. وكلتا صحبتهم وأخوتهـم كانـت في الله تعـالى، ولذلـك امتدّ حبلها وقويت عروتها واتّصلت علاقـتها فكـانوا يـتزاورون فـيما بيـنهم مستديمين الود مقيمين على البِّر.. فإذا مضى بعضهم إلى رحمة مولاه واصلوا صلتهم بأهله ورحمه، وجعلوها سنة راتبة فـي حـياتهم، حـتى لقـد كـانوا يوصون بها أولادهم من بعدهم، لتمتدّ آصرةُ التوادّ في أعقابهم.

وهكـذا كانت الصحبة المبرورة صلة بالله ووفاء لأهل القرآن المتحابين في الله تعـالى . وهكـذا الأخـيار، فـإنهم وإن شـهد لهـم الـناس بـالخير لكـنهم لا يسـمعون ثـناءً عليهم من أحدٍ إلاّ تواروا حياءً، وخاصةً إذا قاسوا أنفسهم على

---

(1) انظر الاستطرادات، رقم (٨).

من صحبوا من أشياخهم، ومن هذه المحاسبة الدقيقة ما جاء في قصيدة ابي اسحق الألبيري الأندلسي (المتوفى ٤٦٠هـ) يعاتب نفسه:

وَقَدْ صَاحَبْتَ أعْلاماً كباراً ولم أرَكَ اقتديت بمن صَحِبْتَ

والحمد لله رب العالمين على ما هيأه لنا بفضله ورحمته مما لا يُنسى من اثر صالح لا نبلغ بعملنا وفاءَ شكره وعرفان فضله، مثلما لا نحصي ثناءً على ربِّنا ذي الجلال والإكرام، لقاءَ نعمائهِ وألطافهِ.

وقد ذكرني هذا الحنين المقيم بوفاء عظيم من شيخ سارت الركبان حديثاً بسيرة خلوته، حيث كنّا في زيارة هذه الخلوة، وقد رأينا من هذا الشيخ عجباً في تعلقه بالمسجد القديم المتصل بالخلوة فقد أنشئ مسجد جديد بموقع آخر، بدوافع التوسع.. فظلّ يعاود هذا الشيخ الحنين إلى المثوى القديم، وقد أخبرنا أنّه أحسّ بأن المسجد الأول ربما أصابه الحزن لفراغه من صلوات الجماعات، فأخذ يداوم فيه على صلاة الضُحى حتى يرضى[1].

زهد نبيل:

وكم لقينا في رحاب بعض هؤلاء الأشياخ والطلاب من يتحمّلون الفاقة ومشقّة الاغتراب، ولكنهم جميعاً قانعون وراضون بما هم فيه، كيف لا! وقد كان من أورادهم المأثورة **(اللهم رَضِّني بقضائك حتى لا أحب تأخير ما عجلت ولا تعجيل ما أخّرْت)**[2].

([1]) انظر الاستطرادات، رقم (٩).

([2])انظر كتاب (الأذكار والأدعية المختارة) للمؤلف، صفحة٥١. وأخرج الطبراني في الأوسط هذا الحديث مطوّلا عن أبي هريرة ﷺ (انظر سنن النسائي، حديث رقم ١٢٨٨).

وقد ذكر لي من كان يغلبه وجده وهو يروي عن شيخ له حدَّثه عمّا كان يعتريه من الحرمان والفاقة، حتى إنه في ذات مرّة بات على الطوى ليالي عدداً، حتى ألجأته الحاجة إلى أن يأكل شيئاً ما يُسكّن خواء معدته، ولم يجد في الحلال المتاح له يومئذٍ مع عفته إلاّ أن يأكل من طين (البحر) - يعني نهر النيل- ولم ينقطع مع ذلك عن طلب العلم الذي كان سعيداً بالاستزادة منه، ولم يشغله ما فتح الله عليه من بعد من نعمة العافية وسعة الرزق، عمّا كان يداوم عليه من التلاوة والذكر والقيام، حتى ودّع دار الفناء إلى دار البقاء في يوم جمعة مبارك وهو في حل ذكر، ونحسبه لو فاه بشيء من حاله يومئذٍ لنثر الدُّر المنظوم، من نحو ما أثر عن بعض سلفنا الصالح، ممّن تنبعث الحكمة من قلوبهم على ألسنتهم، رحمهم الله تعالى.

وقد قال لي من بعد شيخ مجاهد[1]، صاحب خلوة عريقة عامرة، يتوافد عليها الطلاب من شتى الجهات: لقد كنا نتناوب على ركوب الدابة أو نسير على أقدامنا ندعو إلى الله ونبصّر بكتاب الله، وربما كان يسخر منّا بعض من يمرُّ بنا على سياراتهم، ولكننا كنا نرى أننا أحسن منهم حالاً، وأرضى بالاً، وكأننا نمتطي أجواز الفضاء[2].

---

(1) هو الشيخ فقير عوض، وخلوته العريقة في قرية أُوزبي بريفي القولد في محافظة دنقلا. وهو ممَن حفظ القرآن الكريم في خلوة الشيخ شريف؛ الواقعة جنوب مدينة دنقلا وصارت الآن ملحقة بها، وكان شيخها المشهور أيضا هو الشيخ الحاج سعيد، الذي خلف والده في شياخة الخلوة، رحمهم الله تعالى.. ويقوم بشأن هذه الخلوة وتجديد العودة الحلوة إليها شيخنا الأستاذ محمد محمد أحمد علي المشهور بالشيخ أبيض، وهو أحد أحفاد صاحب هذه الخلوة، وقد عاد إلى خلوة أبيه معلما الشيخ أحمد الحاج سعيد ولعل الله تعالى يجدّد لكل خلوة عهدا بالعودة الحلوة إليها على نحو ما رأينا من نهضة جديدة في ولاية نهر النيل والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(2) وكان يصحبه في هذه الحركة والانتقال صاحبه وجاره الشيخ عابدين طه، وما زالا يعملان بتلك الهمة العالية، جزاهما الله تعالى كل خير ورحمة.

ولا تزال هذه الخلوة عامرة بالحيران، وكلما قضت الفيضانات على موقعها القديم اختطَّ لها موقعاً آخر أبعد عن النيل ، وقد تكرر ذلك معه للمرة الثالثة منذ جلس في شياخة الخلوة بعد أبيه، رحمهما الله تعالى.

ولولا هذا الأدب الذي تواصى به السلف الصالح لكان قد دبَّ في نفوسهم الحسد والبغضاء، بسبب ما عانوه من آثار الاغتراب في طلب العلم مع الفاقة . وهذا أحد أشياخهم يوصيهم وكأنهم لا يكفيهم ما هم عليه[1] فيقول:

لـه تَغَـرَّبْ وتواضـعْ واتَّـرِعْ
وجُـعْ وهُـنْ واغْـصِ هَـوَاكَ واتَّـبِعِ
واقْصِـدْ بـه وجْـهَ الـذِي أنْشَـاكا
ولا تُـنَاوِ فـيه مـن نَـاوَاكَـا
حَـتَّىَ تَـرى حَـالَكَ حَـالَ المنشـد
لـو أنَّ سَـلْمَى أبْصَـرَتْ تخـدُّدِي
ودِقَّـةً في عظْـمِ سَـاقِي وَيَـدِي
وبُعْـدَ أهْـلِي وَجَفـاءَ عُـوَّدِي
عضَّـتْ مـن الوَجْـدِ أنَـامِلَ الـيَدِ

(١) انظر كتاب الأستاذ الخليل النحوي (بلاد شنقيط-المنارة والرباط)، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة(المحاضر)ط المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،تونس ١٩٨٧م. وهو كتاب قيّم أهدانيه إيّاه مؤلفه الأخ الوفي الأستاذ الخليل إهداءً خاصا رصين العبارة . ولقد زرت مع الشيخ الدكتور يوسف الخليفة أبي بكر مجالس العلماء ومحاضر العلم في بلاد شنقيط، وشاهدنا عندهم هذا التعلق بالقرآن الكريم وعلومه.

العرفان بفضل الشيوخ:

وأخيراً، فلعلها علامة عافية ويقظة أن نستحضر ماضينا ونستذكره، وأن تشدّنا إليه متون الأشواق على دروب الذكريات، فنستعذب ما كنّا قد عانينا، رجاء أن ننال أجر مشقّة العمل لبلوغ الأمل. ولقد ذكرنا جيلنا المبارك وأشياخنا الكرام من باب معرفة الفضل لأهله ، اعترافاً لهم بالسبق، وعرفاناً لهم بالجميل. ولهذا العرفان بالجميل تهطل مخصوص من المدامع يصفه شاعر النيل إذ يقول:

شَكَرْتُ جميلَ صنْعكمُ بِدمْعِي ... ودمع العينِ مْقيَاسُ الشُّعُور

لأوّلِ مَّرةٍ قد ذاقَ جَفْنِي ... عَلَى مَا ذاقَهُ دَمْعَ السُّرُورِ

وأدب الخلوة يحمل طالب العلم على التواضع لشيخه حيث يرى الفضل له فيما آتاه الله تعالى من علم ووفقه إليه من منهج:

كالبحر يمطره السحاب وماله

منٌّ عليه لأنه من مائه

أمّا عند ذكر الأحباب والأصحاب وأيام الصفاء، فللشاعر البحتري حديث آخر يحلو ويصفو إذ ينشدنا:

وخِلافُ الجميلِ قولُك للذَّا ... كر عهدَ الأحبابِ صَبْراً جميلاً

وإنّه ما تزال صورةُ ذلك الشيخ (الفقير)[1] حيّة في الذهن دوماً، فوصفه

---

(1) كلمة فقير وجمعها (فقراء) يعني بها أهلنا في السودان الفقيه والفقهاء ، ويرققون الراء في حالي الإفراد والجمع.

الذي لا زال حاضراً في الذهن، انه شيخ فاضل، سمح المحيّا وقور السّمْت، تظلّله المهابة مع رأفة في المعاملة ورقة في الطبع. والمجتمع كله يعرف له فضله، فهو الذي طابت القرية بوجوده، وتقرّت القرى بمقامه، وتحضّرت الحواضر بحضوره، وازدانت الأمصار بمآثره، فاجتمع حوله الناس، وقد شهدوا له ببذله وعطائه وقوة شكيمته.

وكان مما يشرح صدورنا لحاضرنا، ويبشرنا بما ينتظرنا في مستقبلنا، ما يخاطبنا به بعض أشياخنا وهم يستشهدون من شعر الحكمة بما يتسق مع المنطق ويتفق مع العلم، كما في قول بعضهم حين رأى الهلال عند ظهوره:

وإذا رأيت من الهلال بُدُوَّه ... أيقنت أن سيكون بدراً كاملاً

ومن فضلهم أنهم غرسوا فينا حبّ القرآن العظيم وحبّ النبي الكريم ﷺ بما كان يعتمل في صدورهم ويستبين من سلوكهم، والمجتمع السوداني كله متأثر بتلك الروح، منفعل مع ذلك الجيل، ومن ذلك احتفاؤهم بأسمائهم وحفظهم لما قرءوه عليهم ولأناشيدهم ومواعظهم وحكمهم، وأفادوا كل من اتصل بهم.

وهناك من الأميين من تلقوا العلم تلقيناً من أولئك الشيوخ الأفذاذ وهم إن لم يتمكنوا من القراءة والكتابة، لكنهم بمتابعة أهل العلم وارتياد حلقاتهم جمعوا طرفاً صالحاً من العلم من خلال قراءتهم على الشيوخ عدداً من الكتب الفقهية، وذلك بعد ما حفظوا بالإلقاء والتلقين قدراً طيباً من سور القرآن العظيم، ثم كان بعض طلاب العلم في حلق الشيوخ من أهل الصنائع

والحرف، ممن شغلهم كسب المعاش عن التفرغ لطلب العلم، ولكنهم بفضل فطرتهم السليمة المتعلقة بالتعليم، وحضورهم الواعي لمجالس العلم، وإدراكهم المستوعب لدروس العلماء، استطاعوا أن يحصِّلوا على قدر صالح مما تمس إليه الحاجة من هذه العلوم، وأن يخرجوا منها بالحكمة والعلم النافع، وقد شهد لهم مجتمعهم بهذا الفضل الكبير، وهم من الكثرة بحيث لا يكاد يحصيهم العَدُّ.

وكان يسمع لبعضهم دويٌّ بالقرآن كدوي النحل.. واذكر منهم من كان قد تقدم به العمر، ثم كنت لا أراه في الحقل أو البيت إلا والمصحف بين يديه، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار بصوت نديٍّ شجيٍّ.

ومنهم من كان تلاءً للقرآن، مجيداً بصوت فخم ينتقل بالتلاوة من ركن إلى آخر، ومن ظل شجرة إلى أخرى، حيث كان يزورنا كثيراً بحكم الصلة الرحمية، وكثيراً ما كان يرفع صوته بالذكر، ومن ذلك ما كان يقرؤه من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (غافر:٤٣)، ومطلع الآية وما يليها: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤٣-٤٤)، ولما أدركه الموت كان واقفاً متكئاً على عصاه فجلس وهو يقرأ الآية نفسها ويقول بعدها: (السلام عليك يا حبيبي يا رسول الله)، ورقد ففاضت روحه إلى الله تعالى.

وكان منهم من حفظ القرآن وقرأ العلم على الشيوخ، ثم جاء به السعي في سبيل العيش الكريم للعمل في الجندية، ولكن سيماء المشيخة لم تفارقه حتى وافى حسن ختامه، وهو على الهيئة التي كان حريصاً عليها طوال عمره، ممسكاً بمصحفه بين يديه، يتلوه في خشوع.

وكان أشياخنا الذين رأيناهم، وكلهم كانوا من حفظة القرآن، تجمعهم صفة مائزة لهم جميعاً، أنهم يخافون الله تعالى وتخشع قلوبهم من ذكر الله تعالى، وقد طاب عيشهم من كسبهم الحلال وكدّهم .. وحدثني أخ عزيز، هو نفسه، لولا أن المعاصرة حجاب، لعُدَّ من كبار الصالحين، وهي صفة بحمد الله تنطبق على آخرين مثله، يعجبهم ألا يعرفهم أحد، نفعنا الله بصحبتهم وصالح دينهم وعلمهم.

قال لي ذلك الأخ العزيز: إنه ضمه مجلس تلاوة مع جملة من هؤلاء الشيوخ المشار إليهم وإن أحدهم لما قرأ عليهم، فبلغ قوله تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف:١٨٢)، بكى القارئ وأبكى الشيوخ[1].. ولربما كان المعنى الذي هلجهم وأخافهم ما جاء في تعليق الإمام سفيان الثوري حيث قال: (نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم من الشكر)[2].

وعلى ذكر البكاء من خشية الله تعالى، وهو ما يُعرف عن أهل التقوى والمغفرة، يقول سفيان الثوري نفسه: (البكاء عشرة أجزاء، جزء منها لله وتسعة

---

(١) وانظر لمزيد العبرة أيضاً سياقها الآخر في سورة القلم، الآية٤٤.

(٢) وسفيان الثوري هو أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، وهو شيخ الإسلام وإمام الحفاظ، وسيد زمانه.. توفي سنة ١٢٦هـ، انظر (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٢٩/٧، ٢٥٨.

لغـير الله فـإذا جاء الذي لله في العام مرة، فهو كثير)[1]. وهو معنى جدير بالعناية، كـيف لا! وفي الصحيح من حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظـلّ إلا ظله (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)، ونص الحديث كاملاً كما جاء في الـبخاري عـن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:(سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِـي ظِلِّـهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّـقٌ فِـي الْمَسَـاجِدِ، وَرَجُـلانِ تَحَابَّـا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَـى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)[2]. وحقّ لهذه العين كذلك أن تذكر في هذا السياق العظيم.

---

(1) المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، حديث رقم ٦٢٠، ومسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم ١٧١٢.

معجزات القرآن وكرامات الشيوخ :

وما أكثر معجزات القرآن العظيم التي ترفد بالكرامات من اتصل بالقرآن قانتاً وتعلق به قلبه مخبتاً.. ومن ذلك أن شيخاً ممن نعرف وظللنا نحن وإياه على عهد الحب في الله تعالى حتى لقي الله تعالى بخير، رحمه الله تعالى، كان مع حفظه المتقن يرى ما يتلوه مكتوباً أمامه[1]، وما أكثر ما يكون من أمثال هذه الكرامات التي يُثَبِّتُ الله تعالى بها قلوب المؤمنين وخاصة المتأخرين في مواجهة الشبهات والفتن المتبرجة، ومن ذلك ما لو حُدِّثَ به أهل عصرنا لكان لبعضهم فتنة، والعياذ بالله تعالى.

ومن هذه الكرامات العظيمة ما حدث للصحابي الجليل أسيد ابن حضير ﷺ حيث رأى أثناء تلاوته العذبة لسورة البقرة ما تحدّث به هو نفسه، حيث جاء في صحيح البخاري: (عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ

---

(1) وهو القارئ المعروف الشيخ صديق أحمد حمدون، رحمه الله تعالى، له تسجيل كامل للمصحف مع تفسير العلامة الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب، عافاه الله تعالى، وبلغني أنه علّق على هذه الكرامة بقوله: (وأنا أصدقه فيما قال).

فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لا أَرَاهَا، قَالَ: وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟ قَالَ: لا، قَالَ: تِلْكَ الْمَلائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ)[1].

وأما أبو معاوية الأسود فهو رجل ضرير، معدود في العُبّاد الزُهّاد من أهل التواضع والانكسار لله تعالى وحده، وانظر ما كان منه حين استطال عليه من أساء الأدب، ولما زجره من كان حاضراً، لم يزد على أن قال لمن أراد زجر ذلك المتطاول عليه: "دعه يَشْتَفِي، ثم قال: اللهم اغفر الذنب الذي سلّطت عليّ به هذا". ولا غرابة من بعد في أن تكون له هذه الكرامة العجيبة، فإنّه لَمَّا دخل عليه من وجد في بيته مصحفاً معلقاً فقال له: (رحمك الله مصحف وأنت لا تبصر! قال: تكتُمُ عليَّ يا أخي حتى أموت؟ قلت: نعم، قال: إني إذا أردتُ أن أقرأ القرآن فُتح لي بصري) [2].

الشيوخ الدعاة الهداة.. وأثرهم في إصلاح المجتمع:

وشيوخ (الخلاوى) حيثما كانوا، في كل مصر وعصر من بلادنا، هم قادة ودعاة وهداة، لهم حصافة ذاتية ومقدرة فريدة في التعامل مع المجتمعات على اختلاف بيئتها، فهم يعلّمون الأطفال القرآن في (الخلاوى) التي تقام في كل المجتمعات الحضرية أو الرعوية المتنقلة، وربما في مناطق يغلب على أطفالها العُري أو شبه العُرْي، وقد تحضر المرأة طفلها عارياً لتلحقه بالخلوة، فتسلمه

---

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن الكريم، باب ١٥، وجالت الفرس: أي تحركت واضطربت.

(2) ابن الجوزي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الشريف للنشر والتوزيع،الرياض، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ص١٩٤.وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي،٧٨/٩ وما بعده.

للشيخ الذي يكسوه ويطعمه ويداويه ويعلمه ليصير شيخاً من بعد ومصلحاً يتولى أهله ومن يليه بالعناية والرعاية والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة على نهج أشياخه، الذين تلقى عنهم العلم والأدب.. وعليه فالخلاوي في تلك المناطق هي مثابات للإصلاح الاجتماعي ومنارات للوعي الديني.

ويذكر للشيوخ فضل ما وجدنا عليه مجتمعنا من النقاء من العلل والأوباء الاجتماعية، التي لا تزال تفتك بكثير من المجتمعات.

ومما يذكره بعض الفضلاء عن السيد الحسن الإدريسي رحمه الله تعالى أنه كان نموذجاً فريداً في المجاهدة بالحكمة والموعظة الحسنة ونشر الفقه في الدين، وتلقين الأذكار للعامة في مقاومة بعض المنكرات، التي كانت منتشرة بين الناس من صناعة الخمور وشربها وخاصةً في المناسبات، حتى صار بذلك من حلٍّ بينهم منذ زمن باكر في خير وعافية مما ظلت تعاني منه بلاد كثيرة حتى قطع الله دابرها بإعلان الشريعة.

وكان هؤلاء الأشياخ مع سعة معارفهم هداة، يخدمون مجتمعهم في كل ما يحتاج إليه من العلوم والمعارف والصنائع والتخطيط العمراني، حتى إن القرى والمدن أقيمت حول مواطنهم بتخطيطهم واختيارهم.

وكم أحسن صاحب قصيدة " المسيد" وهو يصف (طلائع الدعلة) معبّراً عن هذا التراث القرآني العريق ، فيصفه وصف خبير مجرب (وهل يعرف الشوق إلاّ من يكابده) فيقول[1]:

من ترى يذرعُ الفيافي	مغبّراً جَدَّ في المَسِير
يذوبُ من رقةٍ ولكن	تحفُّه هالةُ الجَسُور
وقد نَضَا للهجير وجْهاً	فلاحَهُ لافِحُ الهجير
يعاند الصَّخْرَ مُسْتَذِلاً	بِعَزمِهِ جَبْرَةَ الصُّخُور
لهُ رفيقَان من عصَاهُ	وحُزمةٍ من سُطُور نُور
دثارُه فاخرُ السَّجَايَا	وكبرياءُ الفتَى الفقير[2]
وإنّ في نَاظِرَيهْ عُمْقاً	يَشِفُّ عن مَقْصِدٍ كبير

ولقد يحسن أن نستحضر في هذا السياق حزن الزمخشري على شيخه، وذلك من باب الوفاء والتقدير لأهله، وذلك مما يدلنا على عمق الأثر الذي يُحدثه في تلاميذه وجيله كل شيخٍ عالمٍ، ومعلّم قدوة:

وقائلةٍ ما هذه الدُّرَرُ التي	تُسَاقِطُهَا عيناكَ سِمْطَيْنِ سِمطَيْن
فقلتُ هي الدُّرَرُ اللّواتِي حَشَا بها	أبو مُضَرٍ أذني تَساقَطُ من عَيْني

---

(1) الأستاذ/ عبد الله محمد الشيخ البشير، رحمه الله تعالى (المتوفي في الخرطوم سنة ١٤١٦هـ، ١٩٩٤م) انظر ص ٤، ١٠، ٣٦.

(2) وقد أخبرني من سمع الشاعر أول مرة أنه قرأها (ونخوة القانع الفقير) وهكذا حفظها عنه وذلك لأفضل عندي مما في الديوان (وكبرياء الفتى الفقير).

وما زال أثر الدراسة القرآنية والتنشئة الوجدانية فينا قوياً، وذلك كله ببركة القدوة الصالحة من الشيوخ الصالحين، الذين أحبوا الله تعالى وأحبوا رسوله ﷺ وأحبوا القرآن العظيم وتعليمه ومتعلميه، وقد تفرغوا لهذه الرسالة الجيلة، راضين من زينة الحية الدنيا بقليل المتاع، فحسبهم ما يبلغهم المقيل، أو كما قل أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ حين زاره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ولم يجد في بيته شيئاً، فقل له: (لو اتّخذت لنفسك متاعاً) فأجابه بقوله: (إن هذا سيبلغنا المقيل) ، زاهدين في فضول الدنيا طوعاً واختياراً، موثرين الآجلة على العاجلة، ورعاً واحتساباً.

إجلال حملة القرآن:

ولما كبرنا وقرأنا في صفة العلماء وأقوال أهل القرآن عرفنا أن أشياخنا الذين أدركنا كانوا يتأسون بأهل السبق الأولين، مثل ذلك الصّحابي الجليل الذي كان من أوائل الذين أسلموا واحتملوا في سبيل الدعوة، أعظم العنت، وجاهدوا وأحسنوا في الغزوات والمشاهد أحسن البلاء ، فكان على ضعف ظاهري في جسمه، وقد صنع القرآن منه ما صنع بفضل التلقي المباشر من فيّ رسول الله ﷺ والوحي ينزل عليه، ذلكم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ وهو يقول: (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً، حكيماً حليماً عليماً سكيتاً. وينبغي لحامل القرآن أن لا

يكون جافياً، ولا غافلاً، ولا صخّاباً ولا صيّاحاً، ولاحديداً)[1].

وتمثلاً لهذه الأسوة الحسنة، كان من عرفنا من أشياخنا، ولهذا انتفعوا بصحبة القرآن العظيم، فكانت سيرتهم بين الناس دالة على الله تعالى، وقد تيسَّر لنا في عصرنا وسائل مُعِينَة على تجويد التلاوة وإتقان القراءة مع انتشار كتب التفسير وتوفُّر علوم القرآن، فإن كان كل ذلك لم يبلغنا الحالة التي كان عليها ذلك السلف الصالح أو المقامات الروحية والقامات التربوية التي كان عليها من عاصرنا وعايشنا، فيا لضيعة الأعمار تمشي سبهللاً.

ولعل أكثر ما أفاد المنتفعين في الحقيقة بصحبة القرآن العظيم أنهم أخذوه بروح التلقي للعمل به والتنفيذ له، كما ينصحنا بذلك عبد الله ابن مسعود ﷺ حيث يقول: (إن استطعت أن تكون أنت المحدَّث، وإذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فارعها سمعك فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه)[2].

وعلى ذلك تنافست البيوت في الاتصال الحميم بالقرآن العظيم فغمرها الخير بذكر الله تعالى، وعمتها البركة، ونزلت عليها السكينة، وحفتها الملائكة، كما يقول ابن مسعود ﷺ: (إنَّ هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلَّم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وأن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وأن الشيطان يخرج من البيت الذي تسمع فيه سورة البقرة)[3].

---

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ الأصفهاني (ت٤٣٠هـ)، ١/١٣٠ وما بعدها.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر نفسه.

بل إنهم جعلوا قلوبهم منازل عامرة بالقرآن، ويشع منها نور القرآن على وجوههم الناضرة، كما يصف هذه القلوب المنورة عبد الله ابن مسعود ﷺ بقوله أيضاً: (إنما القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره)[1].

ومما أُثر عن أمير المؤمنين عمر ﷺ فيما يجب أن يحرص عليه أهل القرآن من الهيئة الحسنة قوله، كما في فتح الوصيد للإمام السخاوي: (إني لأحب أن أنظر إلى القارئ أبيض الثياب)، وما أراد إلا تعظيم شأنه.

وقد كان من مضى يعظمون حملة القرآن، حتى قال الشافعي رحمه الله: (من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في النَّحو رقَّ طبعه، ومن لم يَصُنْ نفسه لم يصنْه العلم).

ويجب على المتعلم توقير من يقرأ عليه، والمبالغة في إجلاله، ومما أُثر عن أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ أنه قال: (من حق العالم إذا أتيت مجلسه أن تُسلِّم على القوم وتخصَّه دونهم بالتحيّة، وتجلس أمامه، ولا تُشيرنَّ عنده برأي، ولا تغمزنَّ بعينك، ولا تقولنَّ له قال فلان خلافاً لقوله، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا تسارِّه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلِحَّ عليه إذا كسل، ولا تعرض عن صحبته، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر أن يسقط عليك منها شيء)[2].

---

(1) المصدر نفسه.
(2) فتح الوصيد في شرح القصيد، الجزء الأول، ص ٧٢.

حملة القرآن والقدوة في القناعة:

هـذا وإنَّ ومـن أجـلِّ آداب حملـة القـرآن العزوف عن الدنيا والزهد في الرئاسـة، ومـا أعظـم مـرض القلـوب في تعلقها بشهوة السلطة وحبّ التقدُّم على الـناس، وهي شهوة لا يعدلها شيء من شهوات الأنفس الأخرى، ولذلك قد يزهد بعض الناس في سائر الشهوات حتى إنهم يظمئون نهارهم ويسهرون ليلهم بينما قد يقلّ زهدهم في الرئاسة.

ومـن أعظـم مـا عُرف به الصحابة ﷺ أنهم، مع صيامهم وقيامهم، كانوا يـزهـدون في الدنـيا ويعملـون لحسـاب الدار الآخرة كما وصفهم عبد الله بن مسـعود ﷺ فــي سياق حديثه للتابعين ليتخلّقوا بأخلاق سلفهم الصالـح من الصحابة ﷺ: (أنـتم أكـثر صـياماً، وأكـثر صـلاة، وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسـول الله ﷺ وهـم كانوا خيراً منكم. قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هـم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة)[1].

ومـا أجمـل مـا قدّمه لنا الإمام سفيان الثوري من حكمة عزيزة حيث قال: (مـا رأيـت الـزهد فــي شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نوزع الرئاسة حامى عليها وعادى)[2].

وهـا هـو الفضـيل بـن عياض يقدِّم هذه النصائح النفيسة لأهل القرآن، لـيكونوا قـدوة حسـنة في المجـتمع: ينـبغي لحامل القرآن ألا يكون له حاجةٌ إلى أحـد من الخلق إلى الخليفة من دونه، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه، وقال: حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يَلغوَ مع مَنْ يلغو، ولا أن يسهوَ

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ص ٢٦٢.

مع من يسهو، ولا أن يلهو مع من يلهو"[1]

وأمّا من خالف سنة الشيوخ في لزوم القناعة والزهد والرضا بالقليل، وقَطْعِ الأطماع عمّا في أيدي الناس، فنصيبه حتماً ما [illegible] طامع [illegible] الحرص ويهينه الطمع:

تعالى الله يا سلمَ بنَ عمرو　　　أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال

وهكذا تورث عاقبة الطمع الندامة، ولا يبلغ أحد أن يكون سيداً إلا بالقناعة، كما يعبر عن ذلك القائل:

أطعتُ مطامِعِي فاستعبدتني　　　ولو أني قَنِعْتُ لكنتُ حراً

هذا، ومما ينبغي أن يشار إليه في هذا المقام أن القناعة لا تتحقق إلا بمجاهدة النفس وتزكيتها، أما الاقتناع، وهو بخلاف القناعة، فما أيسر حصوله لمبتغيه بالمحاورة في سياق الأدلة والحجج.

وقد أحسن في المقابل من عَبَّر عن اعتزازه بكرامة العلماء كما يقول الجرجاني:

ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانُوه صانهم　　　ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعُظِّما

ولكن أهانُوه فهان ودنَّسوا　　　مُحَيَّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما

([1]) فتح الوصيد في شرح القصيد، الجزء الأول، ص٧٢.

وقد كان مما حفظنا في هذا السياق من حكم الأدب العربي، وذلك في دروس النحو من شواهد شروح ألفية ابن مالك:

ابا مالكٍ لا تسأل الناسَ والتمسْ بِكَفَّيْكَ فضلَ اللهِ واللهُ أوْسَعُ
ولو سُئل الناسُ الترابَ لأوشكوا إذ قيل هاتُوا أن يملوا ويمنعوا

واستجابت الآماق بتهطال الدموع:

وأنشدني في ذلك اليوم[1] - وكان يوماً مشهوداً في تجديد ذكرى الخلوة- بعض الأشياخ يستدعي بذلك ما استكنَّ في دواخلي حينئذٍ من خالص الوجد وبالغ الشوق والحنين لأيام القرآن وما اتصل بذلك من الخلوة وشيخها والصحبة والجوار والعهد ولعل ذلك كان من فراسة المؤمن إن شاء الله تعالى وسبحانه القائل : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر:٧٥):

وهو حنين إلى المعاني التي ترمز إليها المباني:

أَحِنُّ إلى الدِّيَار ديارِ سَلْمَى أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارَا
وما حبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلْبي ولكن حبُّ من سَكَنَ الدِّيارَا

وكانت الصدور تموج بالأشواق منّا في ذلكم اليوم، يوم زيارة الخلوة، ويتردد في الخواطر وربما على كل لسان:

هذه دارُهُمْ وأنتَ محبٌّ ما بقاءُ الدموعِ في الآماقِ !

(١) وكان ذلك عند زيارتنا لخلوة كبوشية، وسبقتها زيارتنا لخلوة للضروسة على نهر عطبرة.

واستجابت الآماق بتهطال الدموع، وكان أكثرنا انفعالاً في ذلك المجلس العامر المشهود شيخ كبير - تجاوز الثمانين- وقد أسلمه الحنين إلى الأنين، وكان للخلوة من ذلك كله لَجَّة، وحقاً فكل أمرٍ في رحاب "الخلوة" وجوّها مستعذب، وهو لا شك من آثار القرآن نفسه ·

ولكم غمرني شعور فيّاض أثناء تلك الزيارة لخلاوى ولاية نهر النيل في صحبة جمعية القرآن الكريم، حيث تراءت لي صورة خلوتنا وحيرانها يتحلقون حول شيخنا، فعادت بي الذاكرة إلى نصف قرن مرَّ على ولوجنا باب الخلوة المبارك، وقد جاشت بنا الخواطر تطوي المنازل والأيام، فما أبعدها شقة الزمن الطويلة، وما أدناها برهة الذكرى الحية، حيث لم أعد أشعر بحلاوة تعدل تلك التي عشناها فيما انطوى من أيام حياتنا العامرة في بساطتها وحلاوتها، فرعى الله هاتيك الأيام النواضر مكاناً وزماناً وصحبة ·

ولكأن الشاعر إنما كان يعني حالتنا التي اعترتنا في ذلك الموقف وهو يقول[1]:

ذُمَّ المنازلَ بَعْدَ مَنْزِلَةَ اللِّوى وَالعَيْشَ بَعْد أولئك الأيام
ضَرَبَتْ مَعارِفَهَا[2] الرَّوَامِسُ[3] بَعدَنا وَسِجَالُ[4] كلَّ مُجَلْجِلِ[5] سَجَّامِ[6]
وَلَقَدْ أرَاكِ وأنتِ جامعَةُ الهوى[7] نُثْنِي بِعَهْدِكِ خَيْرَ دَار مُقَامِ
فإذا وَقَفْتُ عَلى المَنَازِلِ بِاللِّوَى فاضت دموعي غيرَ ذاتِ نِظَامِ

ولمّا تذاكرنا من بعد آثار تلكم الأيام وصحبة أولئك الأقوام وما أحدثته زيارتنا تلك من تجديد الذكرى سألتُ أحد أصحابنا في تلك الرحلة المباركة عمّا اعترى الناس يومئذٍ من حالة فقال إنه نفسه كان مشغولاً عمّا حوله بما فاض به كيانه من وجد، وأقول: ربما كانت تلك الحالة من نوع ما كان يسعد به بعض الصالحين فيما حكى عنهم.

ذم المنازل بعد منزلة اللوى *** والعيش بعد أولئك الأقوام

---

(١) ديوان جرير، شرح د. يوسف عيد، ط دار الجيل، بيروت، ص٦٩٢.
(٢) معارفها: آثارها.
(٣) الرّوامسُ: الرّياحُ ترمس (تدفن) الآثار بما تثيره.
(٤) سجال: أي تداول نصرتها، والمقصود تعاقب الأمطار على محو الآثار.
(٥) مُجلْجِلٌ: مصوِّت في حركة كالرعد.
(٦) سجّام: دائم القطر، والمقصود عموما تعاقب الأمطار الغزيرة المرعدة.
(٧) أنت جامعة الهوى: كان فيكِ من يحبني وأحبه.

شيوخنا وحسن الختام في صحبة القرآن:

وكأيِّن[1] من شيخ حبيب إلى قلوبنا وارينه الثرى وأعيننا تفيض من الدمع حزناً عليه، ونردد بلسان حالنا ومقالنا:

كفى حزَناً بدَفْنِك ثُمَّ إنِّي ... نفضتُ غبارَ قبرِك منْ يديْ
وكانتْ في حَيَاتِكَ لِي عظَاتٌ ... وأنْتَ اليومَ أوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا

وهكذا يظل هذا الأثر حيَّاً في الوجدان، يعبِّر عنه كل شاعر أديب أصدق تعبير، كما في قول بعضهم:

ومن عجبٍ أنِّي أحنُّ إليهُمو ... أسائلُ شَوْقاً عنهُمُو وهُمُو مَعِي
وتَبْكيهُمُو عَيْنِي وَهُمْ في سَوَادِهَا ... ويَشْتَاقُهمْ قَلْبِي وَهُمْ بَينَ أضْلُعِي

ولكم رأينا من علامات حسن الخاتمة التي كتبها الله لبعضهم من نحو ما كان لشيخ حبيب إلينا، قريب منّا، أنه مع ما كان يغالب من مرض، بينما كان يحادثني في ليلة جمعة حديثاً طويلاً مليئاً بالعلم فيما قال الله تعالى وقال رسوله ﷺ، ودَّعنا إلى رحاب الله جلَّ وعلاً وهو على هذه الحال، لم يجف ريقه ولا انقطع صدى صوته من مسمعي.. فكان بذلك حقيقاً أن يقال فيه ما رُثيَ به من قبل شيخ فاضل:

وَدِّعا أيُّها الحَفِيَّان ذاكَ الشَّخْصَ ... إنَّ الوداعَ أيْسَرُ زَادِ
واغْسِلاَهُ بالدَّمْعِ إنْ كَانَ طُهْراً ... وادْفِنَاهُ بَيْنَ الحَشَا وَالفُؤَادِ

---

(١) كأيِّن بمعنى كم، وأصلها (أي) دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصار في الكلام معنى (وكم)، وصورت في المصحف نوناً، لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغير معناها، ثم كثر استعمالها فحصل فيها تصرف بالقلب والحذف (انظر مفاتح فهم القرآن، للمؤلف، ص٦٨).

ولأهل القرآن الكريم تعلق شديد بحسن الختام، وإن ذلك هو حداؤهم المتصل، وكان مما حدثني به شيخ فاضل[1] يتفانى في حب القرآن وأهله، يوم وفاة أحد إخوانه، أن أخاهم الأكبر وكان هو الشيخ الذي علمهم القرآن فحفظوه بين يديه، كان كثيراً ما يشتاق للدار الآخرة ونيل حسن الختام، وينشد في هذا المعنى:

يَا حنَّان يا مَنَّانْ

تقيض رُوحِي بِإِحْسَانْ

في يوْمِ جُمْعةٍ من رمضانْ

وقد بلغه الله تعالى أمنيته فمات في يوم جمعة من شهر رمضان في السابع منه، وأن أخويه التاليين ماتا كذلك في يوم من أيام الجمعة، وهو يوم عظيم كما هو معلوم، وكذلك ليلته، ومن أدركه الموت في أحدهما كان ذلك من علامات حسن الخاتمة له ([2]) . ولكن لحسن الخاتمة وبحمد الله تعالى أمارات أخرى تظهر لمن أسعدهم الله تعالى بذلك. وما أحوجنا لمثل هذا التذكير وخاصة، في هذا العصر مع كثرة الصوارف عن الله تعالى وقلة استحضار الدار الآخرة أو الرغبة في حسن الختام، لنجتهد مستعينين بالله تعالى أن يوفقنا لذلك بفضله ورحمته، لنكون في هذه المعيَّة الصالحة مع الذاكرين الله كثيراً، وهم الرجل الذين يعاش في أكنافهم . وما أجدرنا من بعد في أيامنا هذه أن تكون أمنيتنا كالشيخ المذكور، وما دام الطلب من فضل الله تعالى فلماذا لا يكون المبتغى هو الفردوس

---

(١) انظر الاستطرادات، رقم (١٠).

(٢) مسند أحمد : مسند المكثرين من الصحابة ، حديث رقم ٦٣٥٩ .

الأعلى، ولذلك يمكن أن نزيد على ذلكم النشيد:

تَالِي السّبعِ مِنَ القُرْآن

ثم شَهيداً فِي المِيدَان

وأما الوصف المستحق لهؤلاء الصالحين والوارد في الآثار فهو أنهم من يذكركم بالله رؤية أحدهم ويزيد في علمكم منطقُه، ويذكركم بالآخرة عمله وعسى أن يكون هؤلاء هم الذين كانت إليهم الإشارة في "تفسير القرآن العظيم" للإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الروم: ٢٧)، قال وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذا سَكنَ الغَدِيُر عَلَى صَفَاءٍ ... وجُنّب أنْ يُحَركَهُ النَّسِيم

تَرى فِيهِ السَّمَاءَ بلاَ امْتِراءٍ ... كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنَّجُوم

كذاك قُلُوبُ أرْبَابِ التَّجَلّي ... يُرى فِي صَفْوِهَا اللهُ العَظِيم

وعلى ذكر الشهادة وحسن الختام فإن ذلك مما تصدر إليه نفوس الحفظة يذكر الحوار جيداً تعرضه لخطر الغرق وهو طفل صغير حتى وصل لقاع النهر، وكان قاب قوسين أو أدنى من مفارقة الحياة حتى تراءت له صورة من الحياة البرزخية ومشاهد القيامة، كيف لا وهو يومئذ أحد الأطفال الحفاظ المحافظين على دينهم، ويعتري الحوار شعور قوي أن حالة حلوة من مشاهدات كتلك التي تعرض لها يومئذ هي أمنية عزيزة لمن تدبرها ويا سعد من أسعفته رحمة الله تعالى بنيل المرام. اللهم وقد أذقتنا الاستمتاع

بـبعض علامـات حسـن الخاتمـة في طفولتنا فامنحنا من لدنك كمالها يوم لقـائك ﴿وذلـك هـو الفوز الكبير﴾ [البروج: ١١] وأي سرور أعظم من ذلـك ﴿ قـل بفضـل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ [يونس: ٥٨]..

الأنس بالقرآن:

والقـرآن العظـيم مصـدر أنـس مقـيم لكـل مـن اتصل به، وهي حقيقة معـروفة عـن القـرآن الكـريم. ومـا أحسن ما عبر عنه أبو الفتح كشاجم[1] في وصـف القـرآن العظيم والمصحف الشريف، وكان المصحف الذي يخصه بهذا الوصف خطياً بالألوان المتعددة، حيث يقول:

مَـنْ يَتُـبْ خَشْـيَةَ العقـابِ فـإنّي	تُبْـتُ أنسـاً بهـذهِ الأجـزاءِ
بِعَثَتْـنِي عـلى القـراءةِ والنُّسْـكِ	ومـا خِلْـتُـني مـنَ القُـرّاءِ
حـين جـاءت تَـرُوقني باعْـتدال	مـن قـدود وَصِـبْغَةٍ واسـتواء
سـبعةٌ أشْبَهَت لـي السـبعةَ الأنجم	ذاتَ الأنـوار والأضـواء
كُسيت مـن أديمهـا الحـالِك اللـو	ن غشـاءً أحِـبْ بـه مـن غِشـاء
مُشْـبهاً صـبغة الشّـبابِ ولَمّـا	تِ العَـذارى و لِبْسَـةَ الخطـباء
ورات أنّهـا تحسـنُ بالضـدّ	فتَاهَـتْ بحلـيةٍ بيضـاء
فهـى مسـودّةُ الظهـور، وفـيها	نـورُ حـقٍّ يَجْلُـو دُجَـى الظَّـلماء

---

(١) كشاجم واسمه محمود بن الحسين. فارسيّ الأصل، واستوطن حلب وهو شاعر وكاتب. ديوانه مطبوع. كان طبّاخاً عند سيف الدولة، وقيل في أصل تلقيبه بـ (كشاجم) أن حروفه الخمسة، ترمز لما كان يتقنه من فنون وعلوم؛ فالكاف للكتابة، والشين للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق. ثم تعلم الطب بأخرة، فزاد معاصروه إلى اللقب (طاء) فصار اللقب بعد الطاء (طكشاجم) لكنه اشتهر باللفظ الأول. انظر الزركلي: الأعلام، ٨/٤٣.

مطبقات على صحائفَ كالرّيْط | تُخَيّرْن من مُسوك الظباء
وكأنَّ الخطوط فيها رياضٌ | شاكراتٌ صنيعةَ الأنْوَاء
وكأنَّ البياضَ و النَّقطَ السُّو | دَ عَبيرٌ رشَشْتهُ في مُلاءِ
وكأن العشورَ والذَّهب السَّا | طع فيها كواكبٌ في سماء
وهي مشكولةٌ بعدَّةِ أشْكا | ل ومقروعةٌ على أنحاء
فلذا شئتَ كان حمزةُ فيها | وإذا شئت كان فيها الكِسَائي
خُضْرة في خلال حُمْرٍ و صفْر | بين تلك الأضْعَاف و الأثناء
مثل ما أثَّر الدَّبيبُ من الذَّرّ | على جِلْدِ بَضَّةٍ عَذْراء
ضمّنت مُحكَم الكتاب كتاب الله | ذي المكرُمات و الآلاء
فحقيقٌ عليّ أنْ أتلُوَ القرآن | فيهنّ مصْبحَي ومَسائي

ونحن بذلك ندعو إلى العودة الحلوة إلى القرآن العظيم وائتلاف القلوب عليه، لأن الاجتماع على تلاوة القرآن من أجَلِّ القُرْبَات إلى الله تعالى متى كان ذلك بوقار وحسن استماع وإنصات وترك للجدال المؤدي لاختلاف القلوب، وفي هذا المعنى جاء الحديث النبوي الصحيح: (**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ**)[1].

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم.

ومعنى ذلك كما يقول صاحب "فيض القدير":(داوموا على قراءته ما اجتمعت ودامت قلوبكم تألف القرآن، فاقرؤوه على نشاط منكم فإن مللتم وغابت قلوبكم عن التدبر والتفهم فقوموا عنه إلى وقت تعودون في محبة قراءاته[1]).

من وصف القرآن:

وما أكثر ما وصف به القرآن من صفات عظيمة هي من آيات ربانيته وعصمته، ومن ذلك ما نقله الإمام السخاوي في كتابه فتح الوصيد في شرح القصيد عن بعض البلغاء، أن قال:

(فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهرٌ غير خفي، يشهد بذلك عجز المتعاطين، ووهن المتكلفين، وتحير الكائدين. وهو المتلو الذي لا يملُّ، والجديدُ الذي لا يَخلقُ والحقُّ الصَّادعُ، والنُور السَّاطِع، والماحي لظُلم الضَّلالِ، ولسانُ الصدق المؤنِبِ للكذبِ، نذيرٌ قدمتْه الرَّحمةُ قبلِ الهلاكِ فهو ناعي الدُّنيا المُتحوِّلَة، وبشيرُ الآخرة المُخلَّدَة، ومفتاحُ الخيرِ ودليلُ الجَنَّةِ.

إنْ أوْجَزَ فكافِئًا، وإنْ كرّر فذاكِراً، وإنْ أوْمَأ فمُقنعاً، وإن أطال فمُفهماً، وإنْ أمر فناصحاً، وإن حكم فعادلاً، وإن خبَّر فصادِقاً، وإن بيَّن فشافياً.. سهلٌ على الفهم، صعب على التعاطي، قريب المُأخذ بعيد المرام، سراجٌ تستضيء به القلوب، حلوٌ إذا تَذَوَّقَتْه العقول، بحر العلوم وديوان الحكم،

---

(١) العلامة المناوي: فيض القدير في شرح الجامع الصغير، ط دار الفكر،١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، ٩٣/٢.

وجوهر الكلم، وشفاء سقام الريب، نـزهة المتوسمين، وروح قلوب الموقنين.

نَزَل به الروحُ الأمين على محمدٍ خاتم النبيين، فخصم الباطل، وصدع بالحقّ، وتألف النفرة، وأناش من الهلكة، وواصل الله به النصر، وأصدع به خدَّ الكفر)[1].

وقد تبارى المادحون في وصف القرآن احتفاءً بمقدم القرن الخامس عشر الهجري فكان من ذلك[2]:

هدىً سيبقى وما عشر وأربعة	من القرون يبقى ما الزمان بقى
الله نزّله والله حافظه	والله ينجي به الدنيا من الرهق
حضارة الغرب تستوفي نهايتها في	الشرق والغرب من قانونها الوبق
حضارة الكدح للتصنيع تطحننا	تريق ذاتية الإنسان في خرق
حضارة الرجل البيضاء جلدته في	المشرق والمغرب قد أوفت على الرمق
يا ليتها خلصت بيضاء ناصعة	اللباب لكنها قشر من البهق
باب الهدى يا فتى القرآن دعك	من الأوهام جلجل أمر الله أنْ أفق
أنت الخليف لما آتتهُ من أُكُلٍ	أنت الطهور على أدرانها اندفق[3]

(١) فتح الوصيد في شرح القصيد، مصدر سابق، ١/٦٥-٦٦.
(٢) المعجم الوسيط.
(٣) للشاعر الأستاذ/عمر بهاء الأميري ـ رحمه الله تعالى ـ.

مجتمع الخلوة

مجتمع الخلوة وصحة الأبدان والعقول:

كانت الحركة الناشطة الدائبة هي السمة الملازمة لحياتنا، إذ كنا نسير على الأقدام المسافات الطوال، وندور داخل الخلوة راجلين (الحيران) يقرءون كل ليلة سُبْع القرآن -على علاة القراء في الخلوة- حول التقابة في دائرة عريضة، وأمام الشيخ تكون (العرضة) لما حفظوا وقوفاً.. وكنا نعمد إلى النشاط الرياضي، وربما خصصنا وقتاً للسبلق ركضاً وجرياً، أو تسابقنا في السباحة إلى منتصف نهر النيل أو حتى إلى شاطئه الآخر..

وكانت وسيلة المواصلات للمسافات البعيدة هي الدواب، والمراكب الشراعية، وكنا نتمتع في معاشنا بطعام صحي خل من مسببات العلل في هذا العصر.. فكان إدامه موزونا وخبزه غير منخول، وأوقاته منتظمة، نكتفي منها بإقامة الأوَد وقد فهمنا أن البطنة تذهب الفطنة.. ولذلك كانت أجسادنا نحيلة من صحة، وقوامنا ممشوقاً على فتوة .. والنحول ممدوح عامة وخاصة لدى المحبين المشوقين :

تشتكي ما اشتكيت منه من ألم الشوق

إليها والشوق حيث النحول

مع ما فاضت به مشاعرنا اليوم لم ننس أبداً أننا يومئذ كنا نسمع منشداً يشدو بصوت قوي:

سلكنا به بحراً إلى الخلد ينتهي ولا بد في عدنِ مراكبنا ترسى

واشـعر الآن أن تلـك الذكـريات تمـوج في خاطـري، وأحِنُّ الى تلكم الدِّيَـار الـتي لم يـبقَ لهـا مـن اثـر فـيما يشـاهد وقـد حدث لها ما حدث للمسـجد والخلوة وما جاورهما، إلا ما بقى في خواطرنا من ذكرى، حيث ظلـت تلكـم المعـالم تتآكل وتزول، بعوامل التعرية والفيضانات المتوالية حتى زالت تماماً.

ثم تواترت الخواطر علينا في ذكرى الخلوة، وأيامها النضرات، وأسعفتنا الذاكرة من بعد في مؤانسة مع صحبة الخلوة فقرأنا من قصيدة النابغة:

فاستعجمت دار نُعمٍ ما تُكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخيار[1]

وما أحلى الإمالة والتقليل في (أخبار) في قافية القصيدة، وجاءت توافق قـراءة الخلـوة عـندنا. وعـــلامـتها نقطـة كبـيرة على الحـــرف الممال، أي من الفتح نحو الكسر.

والإمالـة لغـة في بـني تميم ومن أقوى أحوالها عند علماء اللغة حالة الراء وفي ذلك نجد في كتاب سيبويه:

"وإذا كانت الراء بعد ألف تُمل"[2]

[1] ديوان النابغة الذبياني: ط المكتبة الثقافية، بيروت- لبنان، ص ٤٨.
[2] (سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) ج٤، ص ١٣٦، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط دار الجيل، بيروت، (سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر).

تديُّن المجتمع:

كـان ذلك المجتمع تزيّنُ صغاره البراءة وسلامة الفطرة، ويجمِّل ناشئيه الأدب وتوقـير الكـبار، ويفشـو بـين كـباره حب الخير للناس، والسعي في مصلحتهم، والدأب على قضاء حوائجهم ورحمة صغارهم.

ولقد كان يغلب على مجتمعنا كله، أفراداً وجماعات، إجلال القرآن العظيم وتوقـير أهلـه، الذيـن كـانوا حقـاً قدوة الناس ومؤدبيهم والمذكرين بالله تعالى بيـنهم وكـأنهم في عصـرهم سـادة الدنـيا ووجهـاء الـدار الآخرة لدى وجدان محبيهم، حيـث كـان حـبهم مـن حـبهم لله تعـالى وحـبهم لرسوله ﷺ، ويملأ وجدانهم استحضار الدار الآخرة في طلب العلم النافع والعمل الصالح.

وقد تعلمنا بالقدوة بلسان الحال والمقال من أشياخنا ووالدينا ومجتمعنا أن كـل شيء هو لله حقاً وصدقاً، قولاً وعملاً، ومن ذلك أنه ارتبط في الذاكرة من ذلـك العهـد أن الهدايـة إنّمـا هي من الله تعالى، ولذلك يتكرر السؤال في كل صـلاة، بـل في كـل ركعـة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (الفاتحـة:٦)، وهي هدايـة تهب الحكمة: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة: ٢٦٩)، ولهذا كنّا نكتـب عـلى صـدر (اللـوح) ومقدمـته (يا فتّاح) نكتبها بخط المصحف هكذا: (يفَتّح). ثـم تعلمـنا كذلـك من هذا النظام التعليمي الراشد أن طلب العلم إنّمـا يُـراد بـه وجـه الله تعـالى، والجزاء الأوفى عنده في الدار الآخرة. وكان من الأدب في طلـب العـلم عـندنا أن ندعـو الله تعالى أن يُعلّمنا وأن يدخلنا الجنة.

وكان من نشيدنا يومئذٍ وخاصة في أيام الخميس:

يــــــا اللهْ عَلِمـــــــنـــا وفي الجـــــنَّاتِ أدْخِلْـــــنَا

يــــــا اللهْ بارِكْـــــنا يـــــا فَـــــتَّاح وفِّقْـــــنا

رعاية المجتمع للخلوة:

أمـا فـيما يتصـل بالمجتمع المحيط بالخلوة، على أيامنا تلك، فقد كان المجتمع نفسـه يـرعى الخلـوة ويـتكفل بمعـاش المقـيمين في رحابها.. ومن ذلك التزام إيوائهـم وإعاشـتهم وكسـوتهم بما فـي ذلك غطاء الشتاء، وما أدراك ما الشتاء فـي بلادنـا عامـة وفـي (الشمالية) خاصة.. وكان الطـلاب، أو الحيران، يجري توزيعهم على المنازل المجـاورة، أو ربما لزموا نزلـهم في رحاب الخلوة ثم قصدوا ابـيات المـتكفلين بمعاشـهم لتناول الوجبات كما لو كانوا من أفراد الأسرة، بل يُقَدَّمون على الأقربين، رعاية للضيف المقيم، وإكراماً لأهل القرآن، وتبركاً بهم وتقـرباً إلى الله تعـالى. وكـل أسـرة تسـعد بأن ينالها شرف استضافة من كانت تضمهم الخلوة من المهاجرين أو الوافدين من بعيد، أو وربما كانوا يجمعون من جملـة المـنازل المجـاورة ما تيسّر من طعامٍ في إناءٍ واحدٍ كبيرٍ يشتركون في تناوله واتّخـاذه قوتـاً، وذلك ما يذكرنا بمجتمع الأشعريين بالمدينة النبوية، حيث كانوا إذا أملقـوا -اشـتدّت بهـم الحاجة- أو كانوا في سفرٍ جمعوا ما عندهم من زاد واقتسموه بينهم بالسويّة. أمّا الذين سعدوا ولله الحمد والمنّة بقرب منازلهم من الخلوة فكانوا يروحون ويغدون بينهما في كفالة والديهم.

ولله درُّ هـؤلاء الذين ينفقون على الخلوة محتسبين أجرهم على الله تعالى و

لســـان حـــالهم و مقـــالهم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنســان ٩)، ويعملون مخلصين من أجل اتصال سند القراء في التواتر الدائم فلا تعلم الشمال منهم ما أنفقت يمينها. وفــي المحسنين نماذج نادرة لوجوه ناضرة وجباه عالية تنفق في سبيل الله تعالى في سخاءٍ وأريحية[1].

هــذا مــا كــان من كفالة المجتمع كله للخلوة في إسكان الطلاب وإعاشتهم بأحسن مما في النظام الإعاشي المشابه في بعض المناطق التعليمية في بعض مدن أوروبــا.. وليتــنا نوفــق الــيوم مع المعنيين برعاية الطلاب لنستعيد ذلك النظام الــتكافلي الطوعــي، الــذي كــان يجــري العمــل فيه بدافع البِّر وحافز الإحســان واحتساب ثواب الدار الآخرة.

وإنــه لابــدّ مــن إحــياء موروثنا الديني والوطني في كفالة طلاب العلم من المجــتمع، باستضـــافتهم في محــيط الأســر، ذلــك بــأن إيواءهــم وإعاشــتهم في الداخلــيات، وبخاصــة إذا كانت تقع داخل المدن، ليس بالوضع الأمثل، وإنما هو

---

(١) وفــي رحلتنا تلك وجدنا خلوة على نهر عطبرة تعاني شحَ الماء، فتبرّع لها محسن بار بمبلغ أربعيــن ملــيوناً من الجنيهات وكان رجاؤه ألا يعرفه أحد، وقد حفظنا سرّه كما أراد، أمّا وقد مضــى إلى رحمة الله تعالى فيحسن للاقتداء به وصالح الدعاء له أن يذكر اسمه مقروناً بحسن الثــناء، ذلكــم الشيخ توفيق صالح عثمان صالح رحمه الله تعالى، الذي انتقل إلى رحمة مولاه قريــباً، أحسن الله لقاءه وجعل الجنة مستقره ومثواه، فقد أوتي القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف الــنهار، وعلمت من حاله في رمضان أنه كان يختم القرآن كل يوم وليلة، ثم هو واسع الإنفاق فــي سبيل الله تعالى ذات اليمين وذات الشمال، وهما فضيلتان لا يجوز الحسد (بمعني الغبطة) إلا فــيهما: كما قال صلي الله عليه وسلم : «لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ» (البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، حديث رقم ٤٦٣٨). و قد كان واسطة العقد في مجالسه العامرة، وواسطتنا إليه، من جمعتنا وإيّاه الصحبة فــي تلك الرحلة مولانا الشيخ محمد محمد صادق الكاروري حفظه الله تعالى وأحسن عزاءنا وإيّاه و الأمة جمعاء في صاحبه العزيز.

يجيء كحل نهائي بديل بعد استنفاد مسعى الكفالة الأسرية، حتى ولو كان عن طريق إعانة هذه الأسر من مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع وأهل البِّر والإحسان من خلال صندوق دعم الطلاب. وهناك تجارب شبيهة في الدول الغربية كبريطانيا.

يقول شيخنا الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة أبوبكر، وهو يتحدث عن تراثنا المتوارث في نظام التعليم والإعاشة في الخلوة: (وكانت الخلوة جزءً واحداً من الجمع الديني الكبير الذي يُسمى المسيد وكان المسيد يشتمل على مجموعة من الأقسام أو المؤسسات هي:

١- المسجد الذي تُقام فيه الصلاة.

٢- و الخلوة التي يعلم فيها القرآن.

٣- ودار الضيافة.

٤- داخليات للطلبة.

٥- دار للمرضى.

٦- ديوان للاجتماعات تبرم فيه أمور الناس من صلح وإصلاح شورى وإقامة المناسبات الدينية والاجتماعية من أفراح ومآتم.

٧- منزل لشيخ الخلوة. ثم المنافع والملحقات اللازمة لحية الجماعة، وحيواناتهم)[1].

---

(١) أ.د. يوسف الخليفة أبوبكر. بحث (دور الخلوة في التعليم الأساسي)، مصدر سابق.

من ذكريات الفزعة والنفير :

كـان كـل عمـل اجـتماعي في رحـاب الخلـوة يبتدئ بالنفير ويستمر عليه وينـتهي بـه، وذلـك من مزاولة عمليات الزراعة كالحرث والحصاد إلى عمليات الـتعمير كتشـييد المـنازل وبناء المساجد .. وهم يتخذون في التشييد المواد المحلية يتهادونها فيما بينهم متعاونين متكافلين.. وكان للأمهات كذلك مشاركة رصيفه في هـذا العمـل الجمـاعي الـتعاوني ، لـيس بصـنع الطعـام للعدد العديد من (الـنفير) فحسـب، بـل بالمشـاركة في الخدمة المصاحبة من جلب السقاء يحملنه عـلى رؤوسـهن الكـريمة، ومن رعاية البُهْم وإعلافها وحلبها.. هذا علاوة على نهوضـهن بخدمـة بـيوتهن، حـتى كن يباشرن طلاء الجدران بأيديهن الشريفة.. وتلـك كانـت القـيمة الدينـية والإنسـانية الحقيقـية لمفــهوم استقلال المرأة بالعمل والمسؤولية..

ومن صور الوجدان المتديِّن التي ظلّت حيّة في الذاكرة منذ عهد الخلوة، ما كـان يصـحب العمـل في (الفـزعة) أو الفـزع والنفير وخاصة في أيام الحصاد والمزارعون يـتعاونون فـيما بيـنهم وتـرتفع الأصوات منهم بالأناشيد العذبة، تتخللها الصلاة على النبي ﷺ.

ولكـم كـان سـروري عظـيماً في زيـارة سـابقة للولايـة الشـمالية وبخاصـة عاصـمتها دنقـلا، وكنا في زيارتنا تلك وفداً في صحبة أخينا المشير الشهيد الزبير محمد صالح، رحمه الله تعالى وأحسـن لقاءه ومقامه، وألحقنا به مع الرفقة المباركة الذيـن أنعم الله عليهم بالخلاهم شهداء، إذ وجدنا في شرق النيل (السُّليم) عند حصـاد القمـح اسـتدامة لما كان منطبعاً في ذاكرتنا ووجداننا من نشيد (الفزع).. وقـدّر الله تعالى أن يكون قائد النشيد، لدهشتنا، هو نفسه واحداً من الذين كانوا

يأسروننا بأصواتهم النديَّة في أيام الخلوة وجوارها الندي، ولكأنها تجددت علاات الأنصار من الأوس والخزرج في النفير، بأناشيدهم العذبه عند (الفزعة) كالتي كانوا ينشدونها يوم بناء المسجد النبوي ويوم حفر الخندق، كأنها قد علات بروحها وصداها إلى المنتسبين إليهم ثقافة وأعرافاً من أهل شرق دنقلا (السليم).. وكأن الدعوة النبوية لا تزال تنتقل في الأجيال المنتمية إليهم: فَعَنْ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَحْفِرُ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ وَيَمُرُّ بِنَا فَقَالَ:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ   فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ[1].

وقد كان الأنصار، الذين تبوأوا الدار والإيمان وأحبوا من هاجر إليهم من فضائلهم التي أحبّها رسول الله ﷺ وأثنى عليهم بها أنّهم يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع.

فضل الآباء والأمهات:

رأيتنا يوم جدّدنا العهد بزيارة الخلوة كأن الزمان يستدير بنا إلى عهدنا منذ نصف قرن حيث كانت صلتنا بمجتمع الخلوة والقرية غامرة تحيط بحياتنا كلها وعامرة بالذكر حتى إن الآخرة ظلّت حاضرة من خواطرنا بأثر الصالحين من حولنا، نحب أن نتعلم القرآن وأن ندرك ختمه، فنجتهد ونسارع ونتسابق حتى نُكتَب في حفاظه قبل أن تقوم القيامة، التي كانت محذورة مرغوبة في حياة ذلك المجتمع، ولا يُنكر فضل الآباء الصالحين الذاكرين الله كثيراً، وأثرهم في هذه التنشئة، إذ الأمر كما قيل:

وينشأُ ناشِئُ الفتْيانِ فِينَا   عَلىَ مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوه

(١) أخرجه الشيخان: البخاري في الرقاق برقم ٥٩٣٥، ومسلم في الجهاد والسير برقم ٣٣٦٧.

أمـا الأمهات فهن الصـالحات القانتات الحافظات للغيب، بما حفظ الله واللائـى كـنّ يوقـرن القـرآن الكـريم ومعـلميه ومتعلميه ، وربما جاءت الأم تقـود طفلها إلى الخلوة لتسلمه للشيخ قائلة: (يا سيدنا علمه الأدب واضربه إن كـذب، "الـرحمن عـلم القـرآن") وهكـذا كـن يدركن بفطرة التدين أن الأدب قـرين العـلم، وأن العـلم سبيل العمل. وأما الأجداد فكثيراً ما كانوا يتفرغون من الصوارف ومشاغل الكسب إلى لزوم المساجد والاعتكاف كلياً أو جزئياً فيها. وهـم سائرون في الناس بحسن السيرة والسريرة.

والوجـدان المـتدين واضـح الظهـور جداً على الجدات، فهن في صيام بالـنهار، وقـيام بالليـل، مـع المحافظة على صلاة الضحى، وكان من حديث بعضهن أن أكثر ما يشغل بالها من مشاهد القيامة هو هول الموقف.

وكـان "للجدات" نشيد حول الرحى ("الرحاية"أو "المرحاكة") يفيض رقـة وعذوبـة وتعـبيراً صـادقاً عـن الوجـدان المتديِّن ؛ ومن ذلك تلك المعاني الجلـيلة التي كُنّ يَجُلْنَ حولها في صدق وحرارة وحبٍّ عظيمٍ للصلاة، بفرائضها ونوافـلها، بالباقيات الصـــالحات المبلِّغـــات الأمل وخـــير الدنيا والأخـرة: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهـــف:٤٦)، وهـــنّ ينشـدن ذلـك النشـيد باللغـة النوبـية، الـتي كانـت سائلة يومئذٍ وكانت أكثر انتشـاراً في جيلـنا حـتى إنهـا ظلّـت تتـناقص حتى طغت عليها اللغة العربية بالطوع والاختيار، وقد نظر أخي الشيخ محمد علي الإمام في ذلك النشيد ونقل معانيه إلى اللغة العربية نظماً على النحو التالي:

يا حسرةً علينا

أسنانُنا بيضاءُ كاللَّبنْ

قلوبُنا سوداءُ (كالسَّكنْ)

الناسُ طيبونَ كلُّهم

إلاَّ الذين جاهرُوا بظُلْمِهم

إلاَّ الذين ما انْحنَتْ رقابُهم

لم يركعُوا لله في صلاتِهم

وجَّهنا النبيُّ بالهجرانْ

لتاركِ الصلاةِ والقرآنْ

يقول تاركُ الصَّلاة أضلَّني إبليس!!

هل أحرقَ المياهَ حينَ جاءَ للوضوء

أم حال دونه في حالةِ الركوعْ

أم حرسَ البحرَ بجندِه وعزَّه الرجوعْ

أم ضاقت الأرضُ الفضاءُ بالجموعْ

ألم تكن تسمعُ للمواعِظْ

في المسجدِ القريبِ والجوامع

فما الذي أعددتَ للمَعَادْ

لوحشةِ الطريقِ والسُّهادْ

لظلمةِ القبْرِ و ضَجْعَةِ الترابْ

فلتُدْرِكِ الضُّعافَ يا شفاعةَ النَّبيّ

ويـا لطيب طعامنا يومئذ مذاقاً وشعوراً.. أما المذاق فبموافقة الطبيعة ومهارة الصـناعة.. وأمـا الشـعور فببركة الأيدي المتوضئة التي كانت تتعهده. وذلك مع الكـيان الـذي يفـيض وجداً وإخلاصاً، ليس في الصلاة والشعائر فحسب، بل وفي العمل المضني حول مباشرة النار، وما يلزم في إعداد الطعام من عمل يدوي كـامل: نظافـةً وطحناً وعجناً.. ويا لجمال النشيد المصاحب بصوت شجي يدور حـول معـانٍ دينـية يفيض بها الوجدان.. ومع ذلك ساغ لنا ما سُقيناه من حنان، بأكـثر مـن شراب الماء البارد على الظمأ في هجير بلادنا، لقد سبحنا بذلك في بحور الحب حقاً.

وعـلى أنغـام ذلـك النشـيد العـذب كانـت تلك الأيدي المتوضئة تصنع الطعـام، باسـم الله، وعلى بركة الله، وعلى حب الله تعالى ورسوله ﷺ، ثم من لـيَ مـن بعد - والحديث ذو شجون - بكساء منسوج بجلال الذكر.. وذلك مما جاء في "كـتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ " للقاضي عياض المالكي الأندلسـي وهو يذكر أنّ سيدنا عمر بن الخطاب﵁ في مروره ليلاً بأحياء المدينة تأثر بما بلغ مسمعه من نشيد عذب ترده عجوز تنفش صوفاً وتقول:

عـلى محمـدٍ صـلاةُ الأبْـرَار صـلَّى علـيه الطيـبونَ الأخـيار

قد كنت قَوَّاماً بَكّاءً في الأسْحار يا لَيْتَ شِعْري والمنَايَا أطْـوَار

هل تجمعُني وحَبِيبي الدار ؟

وهي تعني رسول الله ﷺ، كما يقول صاحب (الشّفا).

وهكـذا كـان يـربط الصّـالحون والصّالحات من سلف هذه الأمة معاشهم بمعـادهم، حـتى إنهـم لـيرون في ذلك نعمة يؤدون عليها الشكر، ويتقوون بها عـلى العـبادات والمـروءات. ومن الحكم السائرة بين الذاكرين للاهتمام بغذاء الأرواح قبل الأشباح:

يـا خـادمَ الجِسْـمِ كـم تَشْقَى بِخِدمَتِه أتَطْلُـبُ الـرِّبْحَ ممـاً فـيه خُسْـران؟!
انْهضْ إلى الروحِ واسْتَكمِل فَضَائِلَها فأنْــتَ بالــروحِ لا بِالجِسْــمِ إنْسَـان

وصـلى الله عـلى سـيدنا محمـد، طـب القلـوب ودوائهـا، وعافية الأبدان وشـفائها، ونـور الأبصـار وضـيائها، وعـلى آلـه وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، ورضـي الله تعـالى عـن المهاجـرين والأنصـار ومن تبعهم بإحسان في كل جيل وهم يدلونَ على الله بلسان حالهم ومقالهم.

الحيران وحُفّاظ القرآن

حيران الخلوة:

أما عن صلة الشيوخ بالطلاب فحسبك مصطلح (الحيران) دليلاً معبراً:

وقـلْ أنْ أبْصَـرَتْ عَيْـنَاكَ ذا لَقَـبٍ إلاَّ ومَعْـنَاهُ إنْ فَكَّـرْتَ فِـي لَقَـبِه

و(الحـيْرَان) بإمالـة كَسْرة الحـاء جمع (حُـوَارٍ) بضـم الحـاء، من اصطلاح الشـيوخ والمجـتمع في تسمية التلاميذ والطلاب المتفرغين لحفظ القرآن وطلب العـلم، وربما كان الاسم من الحواريين، وهم الأنصار بل هم خاصة الأصحاب، وكل متفانٍ في نصرة آخر فهو حواري، وخص بعضهم به أنصار الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام. وتـأويل الحواريين في اللغة: الذين أخلصـوا ونُقّـوا من كل عيب.

ومـع روعـة هـذه المعـاني كلها وجواز نسبتها إلى (الحيران) فإنّ المصطلح السـوداني واضـح مـنه تشبيه طالب القرآن في صلته بشيخه بحوار الناقة، وهو ولدهـا مـن حين يوضع إلى أن يفطم ويفصل[1] - في حاجته إليها، وتعلقه بها، وارتضـاعه الحـنان والشـفقة مـنها، وكذلـك الحوار مع شيخه يظل أبداً هكذا رضيع وصاله، فهي بذلك صلة مباشرة تغمرها المحبة والحنو.

فإذا رحل هذا الشيخ إلى أجل معلوم مرتقب وكان يستعد له طول عمره، جَلَّ فقده على الحوار، وربما أنشد تعبيراً عن حاله:

---

[1] ابـن منظور، لسان العرب دار الفكر، ودار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، ٤/ ٢١٩-٢٢١؛ ابـن فـارس معجـم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت،٢/١١٦-١١٧.

ذَهَـــبَ الذِيـــن أحِـــبّهم فعلـــيكِ يـــا دُنْـــيَا السَّـــلام
لا تَذْكُـــرَنَّ العَـــيشَ لـــــي فالعَـــيشُ بعـــدَ همُـــو حَـــرَام
إنِــــي رَضِـــيعُ وِصَـــالِهِم والطِّفـــلُ يُؤْلِمـــه الفِطَـــام

ولا عجب من بعد أن يكون للحيران من الشوق إلى الخلوة وأيامها حنين وصـوت معـبر عـن ذلك مثل حنين الناقة، فإنها ترزم بصوت معلوم.. والإرزام حـنين الناقة في رغائها، ولا يكون ذلك إلا بمتابعة[1]، وشُبِّه به حنينُ الجذع الذي كـان يخطب عليه رسـول الله ﷺ بالمسجد النبوي، فلما تخطاه إلـى المنبر الجديد الـذي صـنع له حـنّ الجـذع حنيـناً كحـنين العشار، فما سكن حتى مسح عليه رسـول الله ﷺ وبشـره بالجـنة، حيـث جاء في الحديث الشريف: (كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْـقُوفًا عَلَـى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُـومُ إِلَـى جِـذْعٍ مِـنْهَا فَلَمَّـا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ)[2].

التقابة ونار القرآن:

كـان قـيام الليل جـزءًا من حياتنا في رحاب (الخلوة) وسنة راتبة للحفظ والمـراجعة حول التقابة، توقـد مما يحتطبه (الحيران) من أشـجار القرية أو الجزر القريـبة مـنها.. وكـنا ونحـن صـغار نقوم الثلث الأخير من الليل، وييسر علينا مشـقّة القـيام ومكـابدة الليل أننا كنا نأوي إلى النوم بعد صلاة العشاء بقليل،

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢/٣٨٩.
(2) صحيح البخاري، باب المناقب، حديث ٢٨٣١.

ويمتد يومنا من قبل صلاة الفجر إلى أن يضحى النهار، وكان ليلنا يتصل كله بنهارنا في ليلي العيدين، الفطر والأضحى، حيث نتابع مجالس الذكر وننصرف بعد صلاة الفجر مستبشرين باقتناء الجديد من الملبس وبمظهر الاحتشاد لصلاة العيدين في الساحات، وما يتبع ذلك من نزهة وتزاور وتواصل ومؤانسة، وعطلة دراسية لم نكن نعرف غيرها إلا ما كان مع المولد النبوي الشريف أو حين نمنح ما بقي من يوم دراسي بعد زيارة زائر كريم من أحباب الشيخ، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث إلا نادراً [1].

وكنا نؤدي صلواتنا كلها في جماعة بالمسجد المتصل بالخلوة (مما يشمله مصطلح المسيد)، لا يشغلنا عن أوقاتها شاغل، مهما صغر أو كبر، من نحو ما يصرف بعض المصلين اليوم من الصوارف بالاجتماعات والمجالس. ولقرآن الفجر المشهود حلاوةً وطلاوةً نحس بها كيف لا ونحن نتلو ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]، مع أننا كنا ننهض من النوم أبكر من ذلك بكثير، وعلى إثر تنبيه يسير لطيف، ينادي به الشيخ الجليل، من غير حاجة إلى أجراس الساعات المنبهة المزعجة.. وكنا نواصل يومنا الدراسي من غير عودٍ للنوم.. كل ذلك ونحن حافظون لشروط الأدب وقواعد السلوك في حضرة الخلوة، ومقام المسجد يمسكنا ما تعلمناه وربينا عليه عن التورط في المخالفة التي تستوجب المحاسبة، ناصبين على أنفسنا منها أدق الرقابة، وذلك في أجواء

---

(1) انظر الاستطرادات، رقم (١١).

هـذه البيـئة التعليمـية المفعمة بنوازع التربية والتزكية، والتي ينشر فيها الشيخ الجليل ظلالاً وارفة يمتزج فيها الوقار بالحزم.

وأمّـا صلاة الجمعة فهي بحقٍ جامعة تجمع القلوب على التقوى، يفد إليها المصلون مـن كل صوبٍ وحدب، وخطبة الجمعة كلمة طيبة تصدر عن نفسٍ زاكـية، فـتأخذ طـريقها إلى القلـوب المطمئـنة، فـتعيرها الآذان والأذهان التنبه الخاشـع، حيـث يعـيها الكـبار كاملـةً ويـدرك الصـغار أقداراً منها نافعةً، وهم مـأخذون بمـا يتـبدى لهم من خشوع الإمام والمأمومين.. وقد كانت صلاة الجمعة وخطبـتها تـؤدي وفق الهدي النبوي، من تلاوة مباشرة بسورة كاملة كسورة (ق) أو عبارات جامعة تتضمن مختاراتٍ من آياتٍ مباركة.

وهكـذا كـان القـرآن الكريم بنور وحيه أن يكون لنا قوتاً يومياً لأرواحنا نعـالج حفظـه وتعـلمه في الخلـوة، ونعـايش فهمـه وتدبـره في الصلاة ومجالس الـدرس. ولذلـك كـان مـنهاج التربية قرآنياً يخرّج جيلاً قرآنياً، وهو بحق كتاب هدايـة للـتي هـي أقـوم مـن الشـرائع والشـعائر، ولمـا هو أهدى من العبادات والمعاملات مع استيعابه سائر شؤون المعاش والمعاد.

والسيرة النبوية هي التجسيد الحي لهذا الكتاب القيم المهيمن فقد وصف الحق ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ بقوله ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم: ٤].

هكـذا كـنا في ظـلال تلـك البيئة القرآنية النبوية ننهل من مطالع النور، رجـاء أن نكون بفضل الله تعالى ورحمته ممن عناهـم قوله تعالى: ﴿**فالذين آمنوا بـه وعـزروه ونصـروه واتـبعوا الـنور الـذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾ [الأعـراف: ١٥٧]، وأن يكون تذكارنا لذلك العهد تذكرةً لهذا العصر أيضاً، إذ

هـو لـيس مجـرد حـنين عابـر.. وإنّما تذكار للاعتبار، وإيقاظ الماضي للاعتبار في الحاضـر، وسيكون مستقبلنا بحول الله وقوته أفضل من ماضينا وحاضرنا، ما دام كـتاب الله بـين صـدورنا ونصـب أعيننا وفوق هاماتنا، وهو من قبل ومن بعد إمامـنا الذي نحتكم إليه ونحكم به، ونهتدي بهداه على منهاج نبينا خاتم الأنبياء والمرسـلين ﷺ ﴿وإنـك لـتهدي إلى صـراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

أمـا (نـار القـرآن) فاصـطلاح كذلـك خـاص بأهل السودان، يعـنون بها اعـتماد القراء في دراستهم الليلية على الاستضاءة بما يوقدون من نار، ومرادهم الإشـارة إلى التراث العتيق في تاريخ التعليم القرآني، حيث كانوا يوقدون النّار للاستضـاءة بهـا في القـراءة الليلـية، ولـولا ذلـك لكـان حقها أن تُسمى (نور القـرآن) مـا دام ذلـك هـو المـراد مـن إيقـاد النار. وفي الأدب العربي مدح نار الضـيفان، وهـي عـادة عربـية قديمـة تـدل عـلى الكرم، إذا أوقدوا على الجبل والمرتفعات ناراً لدعوة من وصلها للإكرام في رحابهم، ومن ذلك:

يا لُبَيْنَي أوْقِدِي طَلَّ المْدَى
أوْقِدِي عَلَّ عَلَى النَّارِ هُدى
أَوْقِدِي النَّارَ لأبْنَاء السَّبيل

أو كما قالت الخنساء:

وإنّ صَـخَراً لـتأتم الهُـدَاةُ بـهِ كَأَنَـهُ عَلَـمٌ فِـي رَاسِـهِ نَـارُ

أو كما في ديوان الحطيئة:

مَتَى تأْتِـهِ تَغْـدُو إلى ضَـوْءِ نَـاره تَجِـدْ خَيْرَ نَـار عِـنْدَهَا خَيرُ مَوْقِـدِ

صوم الهواجر:

وكـان رمضـان في صغرنا في عهد الخلوة، وعلى امتداد أعوام متّصلة، يأتي في صـيفٍ شـديد الهاجـرة، وقـد كـان مـن الكـبار مـن تبلغ به المكابدة في أداء الصيام، بذلـك الحـرّ القـائظ، مـا كـان يلجئه إلى شاطئ النيل لدى القيلولة، يضـطجع مبـتلاً بالمـاء متعرضـاً للهواء.. وكان منهم من يحتمل الصبر احتـساباً والتماساً لمضاعفة الأجر، وهم يذكرون كيف كان ينفر أصحاب رسول الله ﷺ معـه خفافـاً وثقالاً إلى القتال في سبيل الله، وفي أشدّ مواسم الصيف وفي أقسى ظـروف البـيداء، يبـتغون أجـر الصـوم وثـواب الجهـاد. وإذا مـا أدرك رمضان خواتيمه والعشر الأواخر منه بلغ الحزن مداه من عباد الله الصالحين.. وربما كان نشـيدٌ مـن على المآذن والمرتفعات ينادي: لا أوحش الله منك يا شهر رمضان، لا أوحـش الله منك يا شهر الصيام، لا أوحـش الله منك يا شهر القيام، لا أوحش الله منك يا شهر التراويح، لا أوحش الله منك يا شهر التسابيح.

أمّـا إذا أدركوا الخمس الأواخر فلربما زادوا: الوداع الوداع، يهتفون بذلك في نـبرة حـزن عميقة آسية، حتى إن بعض الصغار يتجاوب معهم لصدق ذلك الإنشاد إلى أن يتملكهم البكاء.

وقـد حَبّـب إليـنا ذلـك السـلفِ الصـالح مـنذ عهد الخلوة صوم الهواجر، وحسـن الاحـتفاء برمضـان، إذ كـانوا يعوّدونـنا ونحن في مقتبل الصبا صيام ما تيسـر مـن أيـام رمضـان ، نشـاركهم فـيها فـرحة الإفطـار لـدى المغرب، وهم يشـرفوننا بالإفطـار مـع الكـبار في مسـاجد الأحـياء، أو في جماعـات من الأهل والجيران حول المنازل.

وقد كان ذلك مما توارثته الأجيال اقتداءً برسول الله ﷺ وصحابته من المهاجرين والأنصار، الذين كانوا يحبون صوم الهواجر استعظاماً للأجر، ويستعذبون قيام الليل تحصيلاً لدرجات القُرب، وقد عُرف عن الملتزمين بهاتين الشعيرتين حبَّ حلقات العلم، وحبَّ ساحات الجهاد وحب لقاء الله حتى إذا أدركهم أوان الموت تاقوا إليه واحتفوا به. ومن ذلك ما كان من معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو يستقبل الموت قال:

(مرحباً بالموت مرحباً، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك إنك لتعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)[1] وفاضت روحه إلى الله تعالى.

ومن أخبار الصالحين في الأجيال المباركة اللاحقة أنّه لما أدرك الموت أحد الحُفّاظ أقبلت عليه بنته مشفقة عليه، فقال لها: (وتخافين على أبيك وقد ختم القرآن في هذه الزاوية أربعة آلاف مرة)، ثم أسلم روحه للباري جلّ جلاله.

وقد ذكر أحد أشياخنا الكبار من أهل العلم والحكمة والذكر[2] بين يدي موته أنه منذ حفظ القرآن يافعاً لم يتخلف في حضر ولا سفر عن ختم القرآن كل ثلاثة أيام، أي عشر مرات شهرياً، ومائة وعشرين مُدْلَة أي (خَتْمة) سنوياً،

---

(1) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ١/٥٠٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١/٤٤٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق شعيب الأرناؤوط ونذير حمدان، ط ٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(2) هو العلامة شيخ العلماء الشيخ مجذوب مدثّر الحجّاز، كان من أهل العلم و الذكر، المذكرين بالله تعالى بحالهم وفعالهم، وقد عمل بالتدريس منذ تخرّجه بالعالمية في معهد أمدرمان العلمي، وتدرّج في وظائف التدريس، فكان عميد كلية الشريعة ونائب مدير الجامعة الإسلامية في أم درمان.

فلما عددنا مقدار ما ختم على مدى عمره المبارك وجدناه أكمل ختم القرآن أكثر من عشرة آلاف مرة.

ومن رحمة الله تعالى بأهل القرآن أنهم يحافظون على تلاوته إلى آخر لحظات حياتهم، يذكرونه ويذكّرون به .. ومن ذلك ما كان من الإمام نافع، صاحب القراءة المدنية، فإنه جمع أولاده بين يديه وفاضت روحه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:١).. أما القارئ الكوفي عاصم فإنه حين أدركه الموت جعل يقرأ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام:٦٢)، وظلّ يقرؤها ويحققها إلى آخر نفس منه. وهكذا يصنع القرآن بتلاوته والعمل به، يُذكّر بالآخرة ويهوّن أمر الدنيا.

حفّاظ القرآن والبرّ بالوالدين:

ولعلّ الحافظ للقرآن الكريم، التالي للذكر الحكيم، يجد نفسه في موضع الشكر الخالص لوالديه كما أمره الله تعالى بذلك وقرن شكر والديه بشكره: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٤)، وقد اقترن الإحسان إلى الوالدين بما سبق من أمره تعالى بعبادته فقال: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) [النساء : ٣٦] كما أمره الله تعالى أن يترحم عليهما كما أمرنا القرآن العظيم أيضاً في سياق بر الوالدين والإحسان إليهما مقترناً بعبادة الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء:٢٣-٢٤)، إنها الوصية الدائمة بالإحسان إلى الوالدين كما في قوله تعالى ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ [الأحقاف: ١٥] ، وهي قراءة نافع وجمهور القراء من قراء الحرمين ابن كثير وأبي جعفر والبصرة أبي عمرو بن العلاء ويعقوب ، والشام ابن عامر ، وأما (إحساناً) فهي قراءة عاصم ومن والاه من قراء الكوفة حمزة والكسائي وخلف..

ويتواصل الشكر وتقدير الجميل للوالدين فيما حرصا عليه من ابتعاثهما بولدهما للخلوة لحفظ القرآن، حتى إن الولد لا يجد في حياته مِنَّةً أعظم من هذه الصلة بالقرآن.. وللشيخ الأستاذ العلاَّمة محمد المبارك عبد الله في كتابه (مع التعليم الديني في السودان)[1] هذه العبارات المشرقة، تعبيراً عن بر الوالدين، واعتزازاً بانتمائه لأهل القرآن العظيم وعلومه، حيث يقول: «رحم الله أبي، وأعظم أجره، كان مشغوفاً بالتعليم الديني، مولعاً بحفظ القرآن الكريم، جرياً على سنة آبائه، الذين كان حفظ القرآن لازمة من لوازمهم».

ثم يقول: (وقد حبَّب الله إلي طلب العلم وأغرتني به مرضاة والدي، الذي كنت أحبه وألمح قرة عينيه في ذلك).

---

[1] (مع التعليم الديني في السودان) للشيخ الأستاذ العلاَّمة محمد المبارك عبد الله، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر بمصر، ط١، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م، ١/ ٤، ١٠، ٣٦.

ولم ينسَ الشيخ ذكرياته الأثيرة في موطنه بعدما التحق بالأزهر الشريف، إذ يقول:

حننتُ إلى أم درمانَ أمْطَرَها الحَيَا ... وأوْفَتْ لِبَيْتِ المالِ مِنْها هَواطِلُه

لِذَاتي بِبَيْتِ المالِ منها وَجيرَتي ... تَـأمَّن لبيت المال منها ونازلُه

ووالله ما فارقتها عَنْ قِلي ولاَ ... عَدَلْتُ بها مثوى وما أنا عَاذِلُه

كَلِفْتُ بِكَسْبِ العِلْمِ في مَيْعَة الصِّبا ... فيممتُ مصراً حيثُ تَصْفُوْ مَنَاهِلُه

وإن أنْس لا أنسَ الأبَاطِحَ والرُّبَى ... وجِسْراً يُداني سَاحلَ النِّيلِ ساحلُه

على كثبٍ منه وفي جَنَباتِهِ ... حَفِظْتُ كتابَ اللهِ جَلّتْ دَلائِلُه

نَـثَرْتُ لَهُ عُمْري طِلاباً وخِدْمةً ... فازْهَى الصِّبا منه وَحُقّتْ مَخَايِلُه

والزَمْتُه وَقْتي عشيًّا وَبكرةً ... فَطَابَ الضُّحَى مِنْهُ وَعزّتْ أصائِلُه

التعلق بالسيرة النبوية:

و من تلك الذكريات أيضاً تعلقنا بعد القرآن بالسيرة النبوية المشرّفة، وعلى قلة ما كان يتاح لنا أن نستمع إلى المدائح النبوية، بسبب الانصراف الكلى لتحصيل القرآن تلاوة وحفظاً، فقد كان ولا زال يعجبنا من تلك القصائد والأناشيد ما اتّصل بذكر الشمائل النبوية، ونحسب أن الأصوات المنبعثة بها كانت من أجواف ملتاعة وقلوب مفعمة بالحب الخالص.

وقد ملكت هذه الخلّة إعجابي من الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وأحسن لقاءه وجزاه عن الإسلام خير الجزاء، فإنه كلما أعجبه وصف جميل قاله شاعر في ممدوحه يقول: قال الشاعر يصف ممدوحه ورسول الله ﷺ أولى به.

وإن الأمر حقاً لكما قل حسان بن ثابت رضي الله عنه:

واجملُ منكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي | واحْسَنُ منك لَمْ تَلِد النِّساءُ
خُلقتَ مبرأً مِنْ كُلّ عيبٍ | كأنّك قد خُلِقْتَ كَمَا تشاءُ

أو كما قال آخر في المعنى نفسه يصف رسول الله ﷺ وقيل إنه امدح بيت قالته العرب:

وما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا | ابرَّ واوْفَى ذمةً من مُحَمَّد
وما فقدَ المَاضُون مِثْلَ مُحَمَّدٍ | ولا مثلهُ حتىً القيامة يُفقدُ

الصلات الروحية بين التلاميذ والمشائخ:

آه لو اجدت المحزون أواه فكم اختزن في مآقينا من اللدمع ما يحتاج إلى محرّك عظيم، أو كما قال لي صديق عربيّ، غلبت عليه العجمة اللغوية من طول إقامته في الغرب ما معناه: "نحتاج إلى جرّافة روحية".

واشوقاه إلى أيّام الخلوة البهية و العودة الحلوة النديّة، حيث نلقي عصا التسيار ويكون قرارنا حيث ألفنا واحببنا:

وخَبَّرَها الركبانُ أنْ لَيسَ بَيْنَهَا | وبين قُرَى نجرانَ في الدَّرْبِ كافر
وألقتْ عَصَاها و استَقرّبها النَوَى | كما قَرَّ عيْناً بِالإيابِ المسَافرُ

وما أحلى الماء السائغ الهنيء حينئذٍ يستخلص الحمد من الأعماق، أو كما قل القائل تعبيراً عن حاله:

فسَاغَ لي الشَّرَابُ و كنْتُ قَبْلاً | اكَادُ أغَصُّ بالماءِ الفُرات

لقد كانت أجواء الخلوة مُفعمة بالصلات الروحية والإنسانية الرفيعة في الوفاء والعرفان، ولذلك تظلّ العلاقة الحميمة بين التلميذ وشيخه صورة رائعة يعبّر عنها أجمل تعبير الإمام أبو بكر بن العربي في كتابه "قانون التأويل"[1] يصف لقاءه بشيخه الإمام أبي حامد الغزالي أنّه وجده (معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه و عرضنا أمنيتنا عليه، و قلت له: أنت ضالتنا التي كنّا ننشد، و إمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخبر عن الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم فإنه كان رجلاً إذا عاينته رأيت جمالاً ظاهراً، وإذا عالمته وجدت بحراً زاخراً، وكلّما اختبرت احتبرت. فقصدت رباطه، ولزمت بساطه، واغتنمت خلواته ونشاطه، وكأنّما فرغ لي لأبلغ منه أملي، وأباح لي مكانه، فكنت ألقاه في الصباح و المساء والظهيرة و العشاء، كان في بَزَّته أو بذلته[2]، وأنا مستقل في السؤال، عالم حيث تؤكل كتف الاستدلال، وألفيته حفيّاً بي في التعليم، وفيّاً بعهدة التكريم).

وقد وجد الإمام أبو بكر بن العربي مبتغاه وفوق ما كان يتمناه في لقائه بالإمام الغزالي، الذي أحسن وفادته ويسّر له مقابلته في كل الأوقات حتى وهو

---

(1) أبوبكر محمد بن عبد الله العربي المعافري الإشبيلي (ت ٥٤٣هـ): قانون التأويل، دراسة وتحقيق محمد السليماني ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، ص١١-١٢، وانظر ص ١١٢-١١٣، الحاشية رقم٥.

(2) البِذلَةُ من الثياب ما يلبس في المهنة والعمل ولا يُصان، جمعها بِذَل. والمِبذَل: البذلة والثوب الخلِق، جمعها مباذل، يُقال خرج علينا في مباذِله: في ثياب البيت والعمل . والمبذلة والمبذل جمعها مباذل. (إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية باستنبول، تركيا، ٤٦/١).
ولمّا البزّة فهي ما يقابل البذلة ممّا يتجمل به ويتزيّن في المحافل والمناسبات.

في جلباب البيت أو حلّة الخروج. وحيث التمس العلم عنده وجده في رحابه كالبحر الزاخر، طولاً وعرضاً وعمقاً، ومن أراد معرفة مدى ما يبلغه من المعارف غمره السرور وعمّه الحبور من هذا العالم العلاّمة والحبر الفهّامة.

وإذا كان رأي التلميذ في شيخه كما تقدّم فإن للشيخ رأياً حسناً يصف فيه تلميذه بالشيخ الإمام. حيث يقول الإمام الغزالي في رسالته المشهورة إلى الأمير يوسف بن تاشفين[1]: (والشيخ الإمام أبوبكر بن العربي قد أحرز من العلم في وقت تردده إليّ، ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد، وذلك لما خصّ به من صفاء الذهن، وذكاء الحسّ، واتقاد القريحة، وما يخرج من العراق إلا وهو مستقل بنفسه، حائز قصب السبق بين أقرانه.

من حيران إلى حفّاظ وأهل ذكر:

ولما كَبِرَ (الحيران) كَبُرُوا مقاماً، وفهموا ما قرأوا في سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (طـه:١٣١)، فليس وراء ما يعد به القرآن من مطمع في عاجلة أو تشوف لمتاع زائل، وذلك لما يقرءونه ويحفظونه في تلادهم (أي فيما حفظوه قديماً) وأوائل عهدهم بالقراءة من سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان:٢٣-٢٧)..إذاً فما أحرى بأهل القرآن أن ينتظروا ما أعدّ الله تعالى لأهل الجنّة من نعيم يشدنا إليه ما حفظناه في الصغر. ولقد

---

(١) ٣٢/ب، مخطوط الرباط رقم ١٠٢٠.

كانت أقدامنا ثابتة في الأرض، ولكن أشواقنا متعلقة بما يدعونا إليه القرآن ويهدينا إليه، فتهتدي بصائرنا بفطرتها السليمة وبصحبتها لتلك الأنفس الطاهرة، ومن ذلك أننا كنا نقرأ في انسٍ ومتعةٍ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (الغاشية: ٨-١٦).

وبعض أهل الذكر في الدنيا يذكرون من استمتاعهم بمجلس الذكر من المعارف والحكم ما يشرح الصدر وتقرُّ به العين من نحو قول بعضهم: (إنّه لتمرّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً)، وأعجب من ذلك أن يبلغ الذاكر هذا المقام الكريم كما يقول بعض أهل الذكر: (وإنه لتمرّ بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيِّبٍ).

ويا لحسن حظ أهل الذكر الذين بلغوا مثل هذا المقام الطيب، الذي يضمن صاحبه استدامته بصدق العمل وإخلاص النية.. وبحمد الله تعالى فليست هذه الحالة من طيب النفس وانشراح الصدر واطمئنان القلب مثل المقتنيات والكنوز من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإذاً لكان التنازع والتحاسد والظلم والجور.

(لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)[1] وكما يقول صاحب الوابل الصيِّب من الكلم الطيِّب[2]: (إذ أن للذكر من بين

([1]) انظر ابن قيم الجوزية، الوابل الصيِّب من الكلم الطيِّب، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ص ٤٥.
([2])المصدر نفسه، ص ٧٦.

الأعمال لذة لا يشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به، ولهذا سُميت مجالس الذكر رياض الجنة)، قال مالك بن دينار[1]: (ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل، فليس شيء من الأعمال أخف مؤونة منه ولا أعظم لذة ولا أكثر فرحة وابتهاجاً للقلب).. وقال أيضاً: (خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟، قال: معرفة الله تعالى)، وقال كذلك: (إن الصِّدِّيقين إذا قُرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة)[2].

إن كان ذلك كذلك - وهو كذلك- فما عسانا نقول فيما ينتظر أهل القرآن في الجنة، مما يشير إليه الحديث، قال رسول الله ﷺ: (نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا:هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَذَلِكَ الْبِرُّ، كَذَلِكَ الْبِرُّ وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ)[3]، أو كما قال رسول الله ﷺ.

وهذا الصحابي الجليل، الذي أكرمه الله تعالى بقراءة القرآن بصوت مسموع مستعذب في رياض من الجنّة ببركة البّر بأمه، هو إلى ذلك مذكور في السيرة النبوية بأنه من بني النجّار، خؤولة النبي ﷺ، وقد أنفق في سخاءٍ وحبٍّ في سبيل الله تعالى، ومن ذلك أن ما جاور المسجد النبوي كان من أملاكه

(1) مالك بن دينار البصري (أبو يحي) (ت ١٢٧ أو ١٣٠هـ) ومعدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، ولد في أيام ابن عباس ، وسمع من أنس بن مالك، فمن بعده، وحدّث عنه، ووثّقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري، وحديثه في درجة الحسن.. (انظر:الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ونذير حمدان،ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٣٦٢/٥ - ٣٦٤).

(2) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤١٩/٨-٤٢٠.

(3) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٢٤١٧٢.

فوهب منها النبي ﷺ تلك الحجرات المباركة، وقد كان مع ما تقدّم من أهل بدر، وما أدراك ما أهل بدر، وهو أيضاً ممّن ذكرت كتب السيرة ما كان لهم من موقف ثابت يوم حنين.

فيا لبهاء هذه التلاوة، وهي بمثابة الأنس المقيم، وخاصة في أعلى عليين في ذلك المقام من جنة الخلد حين يرى أهل القرآن مقاعدهم فيها ويعلنون عن فرحتهم الغامرة، التي جاء التعبير عنها فيما قصّه القرآن العظيم من قول المؤمنين: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الصافات:٥٨-٦٠)، وأما ما بعدها من قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ فهو من قول الله تعالى دعوة للمؤمنين لبيان حل عباد الله المستقيمين على أمره، أو هو كما ذهب بعض أهل التفسير[1] من قول المؤمنين أنفسهم من بعد ما رأوا ما كادوا لا يصدقونه من جلال الموقف وهيبة المقام وروعة المشهد فهنيئاً لهم ذلك المقام الموعود به لأهله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر:٥٥).

وكان لقب (شيخ الحيران) منصباً عظيماً، يتبوّؤه من كان متقدّماً في الحفظ والعمر؛ علاوة على كونه مرضياً عنه، علماً وخلقاً، وهو وكبار الحيران أيضاً يساعدون الشيخ في تعليم من هم دونهم في الحفظ.

الصلات الروحية بين الحيران:

وما أجمل ما تكون الأخوة والصلة الروحية بين الفتيان في رحاب القرآن، وما يزالون يذكرون ذلك بعد ما صاروا شباباً وكهولاً وشيوخاً،

---

(1) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، المجلد الثامن، ١٥/٨٤.

ولئن شطت بينهم الديار ونأت عنهم الآماد فإنهم إذا التقوا كان في لقائهم ذكرى وعبرة، ومن ذلك ما كان من لقاء أخوين بعد أربعة عقود من أيام الخلوة، حيث اعتنقا فبكى أحدهما من الشوق، وأحس الآخر برجع صدى تلك الذكرى من عهد الخلوة ، فأسعده. ولا غرو فإن استحضار الأشواق بين المحبين قمين بأن يستثار لأدنى سبب، كيف لا والمحب المشتاق يتجاوب مع الكون كله كما وصف الحكيم:

وذُو الشُّوقِ القَديم وإنْ تَعزَّى   مشوقٌ حين يَلْقى العَاشِقِينا

أو كما قال الآخر وقد هاجه الهديل من حمامة ذات لون رمادي (ورقاء):

رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوفٍ في الضُّحَى   ذاتِ شَدْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ
ذَكَرت إلفاً وعَهْداً سَابقاً   فبَكَتْ حُزْناً وهاجَت حَزَني
فَبُكَائِي ربَّمَا أرَّقَهَا   وبُكَاها ربَّما أرَّقَني
ولقَدْ تَشْكُو فَمَا أفْهَمُهَا   وَلَقَدْ أشْكُو فَمَا تَفهَمُنِي
غَيْر أنِّي بِالجْوَى أعْرِفُها   وهِي أيْضاً بِالجْوَى تَعْرِفُني

وقد مضى إلى رحمة الله بعضنا وهم صبية صغار أو أطفال يُفَّع، أو في ريعان شبابهم، فكمن الحزن في الضلوع وما غادرها على طول العهد، وما تحتاج تلك النفوس التي: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ﴾ (الشمس:٩)، لمن يذكرها بمن نقلت، ولو أنها مَرت على الأطلال أو اجتازت في طريقها المقابر ما اكتفت بالسلام المأثور عليها: (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا

إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية)[1].

وذكرى صحبة القرآن وأهل الذكر من الشيوخ والجيران في عهد الخلوة عظيمة الأثر، لا يخمد لها أوار بين الضلوع، ولا يغيض منها دمع، وهل من سلوان يعزي ؟ لا بل الأمر:كما قال ابن خفاجة الأندلسي على لسان جبل في قصيدته الرائعة[2]:

وما غيّض السُّلوانُ دمعي وإنَّما	نزفتُ دُمُوعي في فراقِ الأصَاحِبِ
فَحَتَّى مَتَى أبْقَى وَيَظْعَنُ صَاحِبٌ	أُوَدِّعُ مِنْهُ رَاحِلاً غَيرَ آيِبِ
وحَتَّى مَتَى أرْعَى الكَوَاكِب سَاهِراً	فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرَى اللَّيَالى وَغَارِبِ
فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلاَيَ دَعْوَةَ ضَارِعٍ	يَمُدُّ إلَى نُعْمَاكَ رَاحةَ رَاغِبِ
فَأسْمَعَنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلَّ عِبْرَةٍ	يُتَرجِمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
فَسَلَّي بمَاَ أبْكَى وَسَرَّى بما شَجَا	وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ
وَقُلْتُ وقَدْ نكَّبْتُ عَنْهُ لِطِيَّةٍ	سَلامٌ فَإنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ

وربما صدح المحب المشتاق مع متمم بن نويرة وهو الملتاع[3] بفقد أخيه مالك:

وقالَ: أتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأيْته	لِقَبْرٍ ثَوَى بينَ اللِّوَى فَالدَّكَادِكِ؟!
فقلتُ لَه: إن الشَّجَا يَبعَثُ	الشَّجَا ودَعْنِى فَهَذا كُلُّه قَبْرُ مَالِك

(١) أخرجه مسلم برقم ١٦٢٠، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها. وقد رُوِيَ هذا الحديث بروايات متعددة انظرها في: النسائي في كتاب الجنائز برقم ٢٠١٣، وابن ماجه في كتاب الجنائز أيضا برقم ١٥٣٦، وأحمد في مسند الأنصار، برقم ٢١٩٠٧ و ٢١٩٦١.

(٢) ديوان ابن خفاجة (المتوفي ٥٣٣هـ)، تحقيق سيد غازي صـ ٢٥ منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩م صـ ٢٥،٢٦، والأبيات واضحة المعاني ولربما كانت كلمة واحدة منها وهي(الطِيّةَ) تحتاج إلى شرح وهي: الجهة أو الناحية البعيدة.

(٣) لَوْعَه الشوق: أحرقه.. (والتاع) فؤاده: احترق من الشوق أو الهم.. (واللاعة): ما يجده الإنسان لولده أو حميمه من الحركة وشدّة الحبّ.. (واللوعة): حركة في القلب، وألم يجده الإنسان من حبٍّ أو همٍّ أو حزنٍ أو نحو ذلك. (انظر المعجم الوسيط، ص ٨٤٦).

وكان جيلنا كله قد التقى في الخلوة، فمنهم من أكمل القرآن العظيم حفظاً بالغيب، ومنهم من اكتفى بختم القرآن مع مقاربة الحفظ، ومنهم من تقدّم في القراءة والكتابة والحفظ ما شاء الله تعالى له حتى التحق بالمدارس، منتفعاً بحسن الابتداء، ومهارات الخلوة التي اكتسبها مصحوبة بالبركة، ولكنهم جميعاً تشدهم هذه الأصرة القوية بقوة ذات دفع خاص وجلابية عجيبة متى ما التقوا من حين لآخر، وعلى اختلاف مواقعهم الوظيفية وأوضاعهم الاجتماعية اجترّوا ذكرى أيام الخلوة، واستدرّوا معين صحبتها المباركة، واستحضروا مأثور مشاهدها الخالدة ليجعلوا من ذلك العهد صلة روحية واشجة تجمع تلك القلوب على عروة الدين الوثقى. ولئن كنّا قد خصصنا شيوخنا من عهد الخلوة بأسمائهم، دون الصحبة من الجيران المعاصرين لنا، فإن صفحات هذا السفر لا تتسع لمثل هذا الاستقصاء، وعذرنا أننا شملناهم بحسن السيرة ووفاء الصحبة، وكريم العهد.

ولئن يسّر الله تعالى لمن يؤرّخ لتلك الحقبة، فسيظفر بذخيرة ثرّة من دقائق الحكم، ورقائق العبر .. ويكون بذلك قد أقام الجسر المتين للتواصل بين الأجيال في تبادل المعارف وتلاقح الخبرات، مع تجديد الانتفاع بمنهج "الخلوة" لتحقيق العودة الحلوة، إن شاء الله تعالى وما ذلك على الله بعزيز..

ولا غرابة من بعد في أن تَقْوَى هذه الصلة الحميمة في رحاب القرآن العظيم بين صحبة الخلوة ورفقة الأنفاس الطاهرة، مع صلاح التنشئة وسمو الأجواء الروحية، ولكأنَّ الشاعر لا يعني سواهم حين قال:

خيرُ إخْوانِك المشَاركُ في الضُّر ... وأين الشريكُ في الضُّرِّ أينا؟
الذي إنْ شَهدْتَ سرَّك في الحيِّ ... وإن غِبتَ كانَ أُذناً وعَيْنا

مـثلَ حَـرّ الـيَاقُوت إنْ مَسّـه الـنَّار   جَــلاهُ الــبَلاءُ فَـــازْدَادَ زَيْــنا

الرؤيا الروحية للخلوة:

ولقـد صـارت (خلوتـنا) تلـك والمسجد الجامع في منطقتها خبراً من الأخبار وأثـراً بعـد عـيان، بعـد أن توالـت فيضانات النيل على المباني كلها فأزالتها تماماً، لكـنها ظلّت باقية في خواطرنا لا تزول بعوامل التعرية كلها، لارتباطها بما لا ينسى على مرِّ الليالي وكرِّ الأيام من ذكرياتنا الأثيرة العزيزة.

وكـلي مـن جِـيران الأمـس، وشـيوخ الـيوم، يمـرون بآثار تلك الديار من (الخلـوات) الزاكـيات، الـتي شـهدت أنقـى أيام حياتهم أثراً وأبقاها ذكراً، مما ظل يعمـر عقولهـم وقلوبهـم ويـرفدهم إلى يومـنا هـذا بمعـين لا ينضـب مـن العلوم والمعـارف المـباركة، فتعروهـم لذلك عبرة الوجد وتروعهم لوعة الأسى، وهم يرون بعـض تلـك الآثار معطلة، بعدما انقطعت عنها أصداء التلاوة التي كانت تتردد في الآفاق كدوي النحل أو أزيز المرجل.. فلا يملكون إلا أن يعتبروا مع عَبْرة ووجد.

ومـن لطائف المشاهد الروحية ما رأى الحوار من حل في رؤيا حلوة، حـلاوة ذكـريات الخلـوة التي كانت تضمه، فقد رآها وهو يتنقل في أرجائها وكأنها عادت حية أيام العهد بها بمبانيها ومعانيها العامرة وحياتها الناضرة، فقـال في رؤيـاه: سـبحان الله هذه هي الخلوة التي بكاها وحنَّ إليها، بعد أن محـت آثارهـا الفيضـانات المتتالية، كيف عادت إلى الحياة، وإذا كانت الرؤيا عـلى مـا تعـبر فعسـى أن يكون العوض كله فيما أنشئ حديثاً من مسجد ومشروع مدرسة قرآنية في موقع جديد.

الحيران.. علم نافع وعمل صالح:

كان الحيران، مع تفرغهم لحفظ القرآن، وأداء واجبات الخلوة، ربما يشارك بعضهم ذويهم في (النفير) أو (الفزعة) ويعاونونهم في الزراعة، كلما وجدوا فراغاً من لزوم الخلوة. إذ كان يسمح نظام الخلوة بذلك، فالطالب يلتحق بها، ويمكث ما تيسَّر له، ويترقى في سلم التعليم بحسب استعداده، ويواصل دراسته أو يقطعها لعارض، ويعود متى شاء، يساعده على ذلك منهج الخلوة القائم على نظام المعلِّم الواحد وكل طالب في الخلوة كأنه فصل دراسي قائم بذاته، فالقبول يَوميٌ ومن غير تقيُّد بعمرٍ معين أو إلزام برسوم أو مصاريف مدرسية، ثمّ إذا تقدَّم الطلاب صاروا بما تعلَّموه معاونين للشيخ ومعلمين لأقرانهم الصِّغار.

ولهذا الاتصال الحميم بالمجتمع، ظلّت الخلوة مستمرة في عطائها، معتمدة علي معاشها مما يُتاح لها، مع خدمة الطلاب لأنفسهم ولضيوف المسيد وقيامهم على رعاية مقر دراستهم وإقامتهم وتوفير ماء الشرب والوضوء، واحتطابهم للتقابة من أجل الإضاءة والمذاكرة الليلية مع قصد التدفئة كذلك في فصل الشتاء.وعليه كانت خدمة الطلاب لأنفسهم والمجتمع المحيط بهم هو نهجهم التربوي في تحويل عملهم النافع إلى عمل صالح.

وهذا هو السبيل لتحصيل العلم النافع والعمل الصالح. وما أحسن ما قاله عمر بن عبد العزيز في تفسير الآية الخاتمة لسورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: (إنّما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا بذلك علماً لا تقوم به أبداننا) قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٠)[1].

---

[1] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، المجلد السابع ١٤/٣٦٤.

التعليم المتَّصل بالخلوة

تطوُّر التجربة:

ولـئن خَفَـتَ الضـياءُ هـنا أو هناك ، فإن سنة الله تعالى الماضية قد قضت بحفـظ القـرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجـر:٩)، ولقد زاد الإقـبال الـيوم على حفظ القرآن من جديد، وظهرت مشروعات تحفيظ القرآن مـن خـلال (الخلاوى) العتيقة المشهورة ، ثمّ رصيفاتها الجديدة التي أنشئت، أو جُـدِّد العهـد بهـا، في أطـراف بلادنـا وفي وسطها وشرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وذلـك مـع انتظام حلقات المساجد وجمعيات القرآن الكريم والمدارس القرآنية، وحلقـات التلاوة والحفظ في الجامعات أو الأحياء السكنية وبين أوساط العمل والموظفين المهنيين بمختلف مستوياتهم.

ومن أجل العناية بتعليم تجويد تلاوة القرآن الكريم والدراسة المتخصصة في القـراءات القرآنـية أنشـئت بالسُّودان "مؤسسة إحياء نار القرآن الكريم" بقـرار مـن مجلـس الوزراء لترعى حفظ القرآن الكريم وحفّاظه. ووفقت بحمد الله تعـالى فأقامت عدداً من معاهد القرآن في ولايات السودان المختلفة وتنافس كـثير مـن الخيريـن في بـنائها، أحسـن الله إلـيهم، وكان أظهرها معهد شروني بالخرطوم، فحمل المعهد اسمه[1].

ثـم قام الخيِّرون من أجل استيعاب خريجي القراءات وتيسير حفظ القرآن لـمن أكملوا حفظ ثلثه مع حصولهم على الشهادة الثانوية، فأنشأوا كلية القرآن الكـريم التي تطوّرت إلى جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية. وقد ضمت معهـد أم درمان العلمي العالي، الذي كان قد أنشئ كذلك للعناية المتخصصة

([1]) انظر الاستطرادات، رقم (١٢).

بـالعلوم الشـرعية والعربية .. وذلك في إطار ثورة التعليم العالي قبل عقد من الـزمان، فصـارت جامعـة، وقـد انشـئت لهذه الجامعة فروع ومعاهد في عدد من ولايات السـودان بالتركيز على تعليم القرآن الكريم وعلومه.

وعـن تطويـر مـنهج الخلـوة إلى منهج لتدريـس القرآن الكريم يقول شيخنا الأسـتاذ الدكتور يوسف الخليفة أبوبكر: (كما أن من الممكن إحالة كل ذلك إلى قواعـد مكتوبة تُدْرَس أو تُدَرَّس كمادة تسمى طريقة القرآن الكريم. وقد قطعت كلية القرآن الكريم - إحدى كليات جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية - شـوطاً في تطويـر نظـرية تعليم القرآن الكريم حتى أصبحت مادة تدرس ضمن مـواد دبلـوم الـتجويد والدراسات الإسلامية المخصصة لتدريب معلمي المرحلة الابتدائية والمتوسطة، الذين توفدهم وزارة التربية إلى تلك الكلية للتخصص في هذا الجانب لمدة عام كامل)[1].

وعلـيه فإنـنا مازلـنا في انـتظار مـزيد مـن اتصال الخلوة ونظامها في التربية والتعليم بما يوافي النهضة العلمية المعاصرة، ويكافئها ويربو عليها، فإنـه لابـد مـن إيصـال المعـارف الحديـثة بوسـائط التعليم التقني لطلاب الخـلاوي؛ لتتسـق جهود الدولة الرامية لتعزيز وضع حافظ القرآن الكريم مساواةً مع الخريج الجامعي، والأدعى أن يزيد الحافظ على غيره[2].

---

(١) أ.د. يوسف الخليفة أبوبكر، بحث (دور الخلوة في التعليم الأساسي)، مصدر سابق.

(٢) ومن لطائف مشاهد الخلوة: أن حواراً أخطأ في قراءته ﴿فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ (النحل: ٢٦)، فقرأها (من تحتهم)، فقال له الشيخ: يا ولدي إن كنت لا تعرف القرآن فاعرف الهندسة والحساب؛ لأن السقف يخرّ من فوق لا من تحت.

العناية بحفظ القرآن:

لقد حفظ الله تعالى كتابه العظيم، وصانه عن التحريف والتبديل، وسخّر له من العلماء من يحفظه بالغيب ويعرف وجوه القراءات وسائر علوم القرآن من كل ما يتصل برسمه، وضبطه، ومخارج حروفه، وتفسير كلماته وآياته.

ثمّ إنّ من البراهين العتيدة على العناية الإلهية بالقرآن الكريم ما استحدثه أهل عصرنا من استخدام الوسائل التقنية الرقمية في حفظ القرآن الكريم ونشره، ومن ذلك جهاز رقمي في تلاوة القرآن وتفسيره عرضته شركة "حرف لتقنية المعلومات" وهو محمول باليد ولا يزيد وزنه عن ١٠٥ جرامات. يحتوي الجهاز الجديد على تلاوة كاملة للمصحف الشريف، وتفسير السور باللغة العربية بصورة فورية. وأوضح مدير عام الشركة أن هذا الجهاز سيساعد الطلبة والمبتدئين والمسلمين غير الناطقين بالعربية على تعلم القرآن واللغة العربية من خلال الاستماع والمتابعة للأيات المكتوبة على شاشته.

ويتميز الجهاز المدمج القابل للنقل بصوت نقي، بفضل التوزيع الصوتي عالي الجودة، إضافة إلى شاشة البلّور السائلة التي تعرض الأيات، مما يسهل عملية البحث عن السور والآيات من خلال فهرس أسماء السور، إضافة إلى إمكانية تكرارها مما يسهل عملية التعلم بيسر. وتتيح مفاتيح التشغيل العديد من عمليات التحكم في إعادة قراءة الأيات وإعادة التشغيل، ووضع علامات مرجعية لحفظ السور والآيات يمكن العودة إليها بعد إغلاق الجهاز. كما يمكّن الضوء المتوفر في الجهاز من استعمل الجهاز في الأماكن المظلمة[1].

---

(1) صحيفة الشرق الأوسط، السنة٢٤،العدد ٨٥٠٧، الخميس٣٠ ذو الحجة ١٤٢٢هـ،١٤ مارس ٢٠٠٢ م.

وحَرِيٌّ بالدولة والمجتمع الاستمرار في تجديد العناية وتوثيق الرعاية للتعليم الأصلي والقائمين عليه من معلّميه ومتعلّميه؛ ولاسيّما وقد استدار الزمان كهيئته يوم كان أعظم أعمالنا في المجتمع والدولة العناية بالقرآن الكريم وتعظيم شعائره وإحياء شرائعه، وبحمد الله تعالى قد نُسخت نظم الغزو الثقافي والاستخراب العلمي، ورجعت المناهج إلى أصولها الثوابت في التربية والتعليم والقوانين وسائر النظم، وعادت الأمة إلى منهاج سلفها الصالح، وأُنزل أهل الاختصاص في العلوم الشرعية واللغة العربية منازلهم، وعرف لهم فضلهم ومقامهم، حتى إن الأخ الفريق الركن/عمر حسن أحمد البشير، رئيس الجمهورية، اتّخذ القرار التاريخي بجعل تعيين المعلمين من حُفّاظ القرآن الكريم في الدرجة التاسعة مع خريجي الجامعات.. وقد أفاء الله علينا من بعد، وذلك من فضله ورحمته، بما تخرج الأرض من كنوزها، وبما تثمر الأيدي والعقول من عطائها، وذلك مما يهيئ لنا أن نغدق على المحرومين عامة، وأن نجزل العطاء للباذلين أرواحهم من المجاهدين ولأهل العلم والتعليم خاصة، فهم أولى الناس بالكفاية والمكافأة على جهادهم وحسن صبرهم وجليل برهم وعظمة رسالتهم وسماحة قدوتهم. وفي ذلك تعظيم للقرآن العظيم وأهله من حفظته والحافظين عليه.

كيف لا! و(أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ)[1]، كما وصفهم رسول الله ﷺ وشهد لهم بخيرية الأمة فقال: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[2]، ثم لا

---

(1) سنن ابن ماجه، حديث رقم ٢١٥، في المقدمة باب فضل في تعلم القرآن وتعليمه، ١/٧٨.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٤٧٣٩، ٤٧٤٠، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ٤/١٩١٩.

نخشى عليهم بعد ذلك شيئاً سوى ان تبطرهم النعمة او تشغلهم المنّة، او يحيط بهم التنافس على العاجلة. وثقتنا في الله أنهم مظنة التقى الذي يحصنهم من غوائل الفتنة.

وقد خشي رسول الله ﷺ من مثل هذه الفتنة على أصحابه من الأنصار، اهل الإيثار والنصرة، حين رأى بعضهم قد تعرض لنواله الجزيل بعدما أفاء الله على المسلمين من أموال البحرين، فقال لهم: (لعلكم سمعتم بما أفاء الله علينا من مال البحرين). قالوا: نعم. فقال ﷺ: (فابشروا وأمّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)[1].

القرآن في مواجهة المكر الكُبّار:

لقد سعى الاستخراب، الذي يسمى نفسه بالاستعمار هو ومن والَى نظامه، في استصغار أهل القرآن والحط من قدرهم والاستهانة بهم وإغلاق باب الوظائف دونهم، وقد أثر ذلك على بعضهم فحنقوا أو أصابتهم المسكنة، وسعد أيّما سعادة من رَكَلَ الدنيا كلّها في وجه الظلمة واستأنس برضوان الله تعالى، و قد علم أنه (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا)[2].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، برقم ٣٧٩١، ٤/ ١٤٧٣، وايضاً في كتاب الجزية والموادعة، باب ما جاء في أخذ الجزية من اليهود والنصارى والمجوس والعجم، برقم ٢٩٨٨، ١١٥٢/٣، وكذلك في كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، ٢٣٦١/٥.

(2) سنن ابن ماجه، برقم ٤١١٠، كتاب الزهد، باب (مثل الدنيا)، ١٣٧٧/٢.

ولقد شاهدتُ في حقبة الثمانينيات تسجيلاً مصوراً في تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي) (لخلوة) ريفية تعاني من بؤس المعاش وسوء التغذية، بينما تجري محاورة في قرية أخرى ومنازعة داخل أسرة بين أفرادها وجيرانها حول مصير ابنهم لو ابتعث إلى تلك الخلوة: أي وظيفة سيشغلها سوى تلك التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي على كل حال عندهم متدنية.. وقد كانت المدارس يومئذٍ من القلة بحيث تحقق لخريجيها فرصة العمل كموظفين في دواوين الحكومة.

فلما ازدادت مؤسسات التعليم العام والعالي، و ضاقت فرص التوظيف أمامهم جميعاً، وعاد بعضهم لحفظ القرآن وجد علماً وأُنْساً، وصار لدينا بذلك حفّاظ جمعوا بين حفظهم اللاحق ودراستهم المدرسية فأفادوا قومهم ديناً ودنيا.

وخير سبيل للمتعلمين عموماً وخريجي (الخلاوي) خصوصاً، أن يتعلموا ويتدربوا على كسب معاشهم وتحصيل العلم الصالح لعصرهم، وقد كان المجتمع في غالب أحواله يعتمد على الزراعة في كسب معاشه، وكان ذلك يكفيه ويحقق مطالبه المتواضعة، ولهذا كان ذلك لا يمنعه من الاتصال بما كان متاحاً لتحصيل العلم من الحلق المسجدية.. ولئن كان ذلك يكفيهم فيما مضى، أو أنه كان مفروضاً عليهم، أو لا سبيل لما سواه، فإنه لم يعد يفي - في يومنا هذا- أقلّ من التدريب على مهارات جديدة تواكب بل تسابق مطلوبات عصرنا في استخدام التقنيات الحديثة، ليس لمجرد تجويد سبل كسب المعاش بل من أجل امتلاك القوة وتوسيع المعرفة، لتحقيق مصلحة الفرد والمجتمع ومنفعة الأمة، وذلك اتساقاً مع المقاصد الشرعية.

و لقد ظلّ أهل القرآن طوال عهد الاستخراب يعتقدون أنه مثلما كان للقرآن في بلادنا دولة بقيت جذوتها في صدور المؤمنين حيث ظلّ كتاب الله متلواً في المحاريب آناء الليل وأطراف النهار فستدول دولة الكفار وفق سنة الله الماضية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠)، و يعود الإسلام غريباً كما بدأ على منهاج النبوّة، بالتربية و التزكية بين الأفراد والجماعات والمجتمع والدولة بعد ذلك، في تدرج حكيم وتطوّر حصيف، حتى لا ننتكس بالعجلة والغلوّ، أو نرتكس بالتفريط والإهمال، وقد جاء عمر بن عبد العزيز بعد نحو قرن واحدٍ من الخلافة الراشدة فلحتاج إلى هذه الحكمة، حين أجاب ابنه عبد الملك لـمّا استعجله إكمال خطوات الإصلاح، بقوله: (لا تعجل يا بني، فإن الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذلك فتنة)[1].

وهذه صورة جِدُّ طيبةٍ لإقامة الدين وإحياء شرائعه وشعائره وتزكية المجتمع كله، جماعات وأفراداً، بما فيهم رجال الدولة نفسها، وحقاً فإن القانون مهما كانت صياغته وقوته يحتاج في المقام الأول إلى القلوب الخاشعة والنفوس الزكية والمستحضرة لحساب الدار الآخرة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران:٣٠)،

---

(1) الشاطبي: هو أبو اسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي . الموافقات في أصول الشريعة الإسلامية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط٢، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م مجلد٢، ص٩٣.

وكيف ينسى المؤمن أن من آخر ما نـزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١).

فجرٌ جديد لأهل القرآن:

وقـد انبعـث اليوم تجديد أمر الدين من داخل المجتمع في تآزر وتآلف مـع الدولـة ومؤسساتها للعودة إلى حفظ القرآن الكريم، وإحياء شعائر الله تعـالى، وإقامـة شـرائعه، مـع مـا يُعقد من مهرجانات للقرآن، وما يمنح من الجوائـز والمكافـآت التشـجيعية لـلحفاظ يقـترن ذلـك كلـه بتيسير سبل التعلـيم العام والعالي وإتاحة فرص التوظيف والترقي ورعاية (الخلاوى) والعـناية الخاصـة بشـــيوخها (وحـــيرانهـا) ورد الاعــتبار للتعلـيم الأصلي بمجمله.

وجـاءت المدرسـة القرآنـية، فأثبتت عملياً التفوق العلمي للحفاظ في حفظ القرآن الكريم و في المقررات الدراسية، ليكون للحفاظ ما شاءوا من اختـيار لمسـتقبلهم الدراسـي.. وقـد تهـيأ للمعلمين أنّ يدرّبوا على تجويد القـرآن وإتقـان تلاوتـه ؛ وخاصـة في ولايـة الخـرطوم حيـث ظلـت تهيئ لمعلمـيها دورات متخصصـة في الـتجويد وعلـوم القـرآن، وذلك من أجل إعـداد المعلم المقرئ الجامع، يعلـم القرآن العظيم إلى جانب المواد الدراسية الأخـرى، وبذلـك يبلغ تعظيم المجتمع لحُفّاظ القرآن الكريم مداه ومقصده. ويصير القرآن العظيم بعلومه وآدابه هو الطاقة الموجهة والقوة الدافعة.

وربنا الرحمن المستعان هو سبحانه غالب على أمره، رغم كيد الكفّار ومكرهم الكُبَّار، بالليل والنهار، وهم لا يريدون للقرآن ولا للتعليم القرآني أن يبقى، وجلّ جلال الله تعالى القائل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)، بل إنهم لن يبلغوا بكيدهم مهما اشتد إلا تباراً (هلاكاً) وخسراناً مبيناً، ولن يصيب المسلمين من كل كيدهم إلا أذى يحتملونه في سبيل دينهم، يرفع الله تعالى به مقامهم ويعلي منازلهم.. أما نور الله تعالى فهو آخذ بإذنه عز وجل امتداده في آفاق الكون وانتشاره في مشارق الأرض ومغاربها، وليست العبرة بما يريد أعداء الله تعالى، بل بما يقدره ربنا ويمضيه ويعد به حقاً، ويوفي به: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ (التوبة:١١١)، وهو كذلك ضامن أن يظهر دينه مهما كره الكفار، ومهما كان سعيهم وافتراؤهم الكذب ظلماً وبغياً فإن الله تعالى لا يبلغهم مرادهم:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ (الصف: ٧-٩).

ولئن جاءت هذه الآيات في سورة الصف التي بشّر فيها رسول الله عيسى عليه السلام بأخيه القادم من بعده رسولاً خاتماً من أولي العزم من الرسل: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ (الصف: ٦)، فقد جاء التأكيد على هذا المعنى في سورة التوبة التي هي مثل سورة الصف في مواجهة كيد الكفار والمنافقين،

يقول تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢-٣٣).

ورغم أن الغزاة وهم في عُقْر دار الإسلام قد كادوا لهذا الدين وللقرآن العظيم خاصة، فقد بقيت جذوة القرآن متقدة أبداً، ولكم حاربوا أول كل شيء الخلوة والنظام التعليمي الإسلامي بما أحدثوا من مدارسهم وما منحوا خريجيها من امتيازات وإغراءات جذبت كثيرين، لكنها عجزت عن أن تحدث أثرها كله فيهم، فقد نفع الطلاب حسن الابتداء بما تعلموا من القرآن وصحبوا من الأنفاس الطاهرة، ثم إن المدرسة نفسها تحررت من سيطرة نظم التعليم الأجنبية شيئاً فشيئاً، ولا يزال تأصيل المناهج يجري على قدم وساق. ثم إن المدارس القرآنية اليوم صارت تجتذب ناشئتنا بما ظهر من نجاح خريجيها على أقرانهم في مقرراتهم الدراسية، فضلاً عن امتيازهم بحفظ القرآن الكريم الذي هو أعظم من كل شيء.

وإن الواجب علينا أن نعمل مخلصين لله تعالى، معتمدين عليه وحده لا على مجرد بذل الجهد: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال:١٧).

ولقد أحسن من قل في هذا المعنى:

وقايـةُ الله أغْنَـت عَـنْ تَوَقِّينا ... وسـنةُ اللهِ في الماضِـين تَكْفِينا

كـادَ الأعَـادي فَـلاً واللهِ مـا تَـرَكُوا ... قَـوْلاً وفِعْـلاً وتَلْقِينـاً وتَهْجِينـا

ولم نَـزِدْ نحـنُ في سِـرٍّ وفي عَلَـنٍ ... عـلى مَقَالَتِـنَا اللهُ يَكْفِينـا

فكـانَ ذاكَ وَرَدَّ الله حَاسِـدَنا ... بِغَـيْظِه لَـمْ يَـنَلْ تَقْدِيَـرهُ فيـنا

القرآن المحفوظ والعودة الحلوة:

والحمـد لله مـن قـبل ومـن بعـد حيث عادت الخلوة إلى الحياة من جديد والعـود إلـيها أحمد بين مختلف الأعمار والفئات .. هذا ومما ينبغي أن يعلم أن الخلـوة مـن حيـث يـراد بهـا وجه الله تعالى فهي باقية على الأيام، مهما كانت العوائـق.. وحقـاً فـإن مـا قصـد به وجه الله يعلو.. وكذلك فإن الخلوة هي رمز الصلة المباشرة بالقرآن الكريم، الذي هو أصل الأصول في ديننا، وهو دين يقوم على توحيد الله وإخلاص العبادة له.

ديـنٌ عـلى التوحـيدِ قـامَ أساسُـه ... وصـلَ الإلـهُ بقـاءَه بـبقائِـه

ثم إنه كتاب الله تعالى المحفوظ بحفظه أبد الدهر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، ومـع مـا ضـمنه مـن حفـظ كـتابه ويسّر من وسـائل ذكـره وتدويـنه في المصـاحف سـخّر له الحفّـاظ والعـلماء يحملونـه في صـدورهم حفظـاً وعلماً، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت:٤٩).

كـان رسـول الله ﷺ سيِّد الحفاظ وأول من حفظ القرآن الكريم بتلقيه عـن الله تعـالى بوسـاطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، وقد كان ﷺ حريصاً اشد الحـرص عـلى حفظ القرآن الكريم أوان نزوله فضمن الله تعالى له حفظه في صدره، وحفظه لمن بعده فقل تعالى

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧].

ومعـنى ذلـك كلـه أنـه مهما كاد الأعداء لهذا القرآن أنْ يمنحي أو يزول فلا سبيل لهم إلى ذلك لأنّه سبحانه وتعالى أنزله وتكفّل بحفظه.

هـذا ولقـد يسّـرت وسـائل الحفظ الحديثة تعليم القرآن، ومع ما يكيد له الأعـداء باسـتخدام هذه الوسائل نفسها في محاولات التشويش والتحريف فإن هـذه الوسـائل نفسها ترتدّ عليهم بما يحبط كيدهم، لأن المسلمين يستخدمونها عـلى أحســـن وجـــه للانـتفاع بهـا، ومواجهـة مـن يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

إن منهاج الخلوة، لعمري، تراث عميق الأبعادلم يستطع الغزاة في أيّ عصـر ومصـر أن يجتثوا جذوره، أو يجففوا منابعه، فلم يقدروا ولن يقدروا عـلى أن يطفئوا نور الله أو يخمدوا (نار القرآن)، تنبعث من تلك الرحاب القرآنية المباركة.

هـذا الـتراث الخـالد المتّصـل، الـذي نحـيي اليوم سيرته هو التعليم الأصـلي، الذي حفظ على أمتنا استمـساكها بدينها، ولن يُفرّط المؤمنون فيه أو يشتروا العاجلة بالآجلة دونه.

التوجيهات الرئاسية بإنصاف حفظة القرآن الكريم:

ولعل للقرار الرئاسي التاريخي في إنصاف حُفّاظ القرآن الكريم، بجعل تعيينهم الوظيفي في مرتبة خريجي الجامعات، لهذا القرار أثره البالغ في رفع مكانتهم الاجتماعية والوظيفية، تكريماً لأهل القرآن، من حُفّاظه ومعلميه، حتى أخذ المجتمع يتنافس في تقدير شيوخ الخلوة وخريجيها.

وتجري التوجيهات الرئاسية كما يلي:

١- خطاب رقم ق ج/ م ت/١/١ مكرر: ١/١/١/٥١ بتاريخ ١٠ رجب ١٤٢٢ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١م موجه إلى السادة الولاة لوضع هذه التوجيهات موضع التنفيذ

حيث أشار الخطاب لبحث شؤون الأئمة والعاملين بالمساجد من حيث أوضاعهم المهنية وتأهيلهم.

٢- ومن هذه التوجيهات: تعيين العاملين بالمساجد حسب نظام الأجور المعمول به في الخدمة العامة.. والذين يحملون مؤهلات علمية من الأئمة يعاملون معاملة رصفائهم ممّن يحملون المؤهل

ذاته بالخدمة العامة، والتنفيذ الفوري للتوجيه السابق القاضي بمعاملة حفظة القرآن الكريم معاملة خريجي الجامعات فيما يخص الرواتب وشروط الخدمة، ووضع خطة عاجلة لرفع مستوى تأهيل الأئمة.

وفي بلادنا (خلاوي) عتيدة عامرة كثيرة، وأخرى حديثة العهد وقد زادها عِمَارَةً وعُمَّاراً اليوم، فوق دعم أصحابها والمجتمع لها، ما تتلقاه من دفع قوي ومعاش شهري من الولاة الذين بادروا بتنفيذ توجيهات الأخ رئيس الجمهورية المشار إليها، ثم تضمين مرتبات العاملين في المساجد من الأئمة والمؤذنين في الفصل الأول من ميزانية الولاية.

أما بعض الولايات الغنية فإنها إلى جانب الإنفاذ الفوري لقرارات الأخ رئيس الجمهورية، فإنها تتكفل بمعاش الخلاوي الكبيرة بها مع تقديم مساعدات سخية للخلاوي الكبيرة بعدد من ولايات السودان

وعسى أن تحذو كل ولاية ومحافظة ومحلية حذو أهل السبق والإحسان وهذا مجال شريف للتنافس على الخير من كل من ولاّهم الله ولاية ينالون

بخدمـــــــتها ، وإحســــــان الأداء فـــيها خـــــير الآخــــــرة والأولى :

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين:٢٦).

ذلـك كـان دور الدولة في إنصاف حُفّاظ القرآن الكريم، أمّا المجتمع فـلا يعـوزه كـثير حفـز لإقطـاع الأوقـاف الخيرية أو إيلاء الرعاية الخالصة (لـلخلاوي).. فلطالما حافظـت عـلى حـياتها وحيويتها من اتصالها الحميم بالصلة المباشرة بوجدان الشعب كلّه والأصرة الاجتماعية دون اعتماد على المـوارد الرسمية أو المنح والقروض الخارجية. وذلك مع ما نرجو أن تقوم به الولايـات مـن رعاية حانية لتعليم القرآن العظيم وتوقير حفاظه ومعلميه، عـلاوة عـلى أئمـة المسـاجد والمؤذنـين والقائمين على التدريس في الحِلَق المسـجدية، ونبشّـر كـل قائم بما يليه من هؤلاء وأولئك بما أدخره الله تعالى لأولـيائه ممـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلـــب بشــــر (فَـلاَ تَعْلَـمُ نَفْـسٌ مَّـا أُخْفِي لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [سورة السجدة: آية ١٧].

خاتمة

ثمّ أمّـــا بعدُ، فإن (الخلوة والعودة الحلوة) هي دعوة إلى العودة إلى الأصالة، بالأخذ بأفضل ما في التعليم الأصلي البادئ بـــالخلوة، مـــن قيم التربية، ووسائل التعليم، مما أثبتت المعرفة والتجربة، في العلوم الحديثة، صحة منهجه وسلامة توجهه .. فكأنما نـــريد العودة إلى الخلوة الحديثة التي تأخذ بسبب من الوســـائل المتطورة، مما يقتضيه تطوُّر أنماط الحياة وتقدُّم مظاهر المجتمعات، مع الحِفَاظ على روح التلقي للتنفيذ، و اقتران العلم بـــالأدب، وتوخـــي الرحمة بالصغار مع التوقير للكبار، وقبل ذلك، وفوقه، الحِفاظ، بما حفظ الله تعالى، على كتاب الخلود، القـــرآن العظيم، نستظهر في صدورنا نصوصه، ونتعلّم علومه، ونتخلّق بأخلاقه، ونتأدب بآدابه، ونجعله دستور حياتنا، ومنهج ســـلوكنا، ونـــور عقولـــنا، وقوت قلوبنا. وذلك تحقيقاً لهذه الحكمـــة الجلـــيلة (أقيموا دولة الإسلام في صدوركم تقم في أرضكم)، وحينئذٍ يجئ الجيل القرآني قائماً على منهاج النبوة، وتجـــئ الطائفة المنصورة بإذن الله لتحرر الأرض من المتمردين والمحتلين والمعتدين ، وترتفع راية التوحيد في رحابنا كلها.

وتظهـر هـذه الطـائفـة المنصـورة في أكـناف بيـت المقدس على أشـدّ أعدائنا كما قـال القـرآن ولا قول بعده: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً

لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ (المائدة: ٨٢)، وبهذا تكتمل نعمة الله علينا، فتتآخى القلوب بين المؤمنين، وتتّحد كلمتهم على توحيد الله تعالى وطاعته ومحبته، وعلى طاعة رسوله الخاتم ومحبته والاقتداء بسننه، واتّباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وسائر الصّحابة أجمعين، وهم قدوتنا ووسائطنا إلى السنة النبوية، وكما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: (من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم)[1].

و(الخلوة والعودة الحلوة) هي، في حقيقتها، دعوة للعودة إلى حياة البراءة والتواضع، في المظهر والمخبر، و إلى إحياء قيم الإيثار والبِّر والإحسان بين الناس كافة، وبخاصة ذوي الأرحام والجيران والضيفان .. وهي مع ذلك دعوة إلى الرضى المقترن بالعمل في مواجهة (فخ العولمة) المنصوب أمامنا ، وهو يغري بالنهم في طلب الدنيا التي كادت مساحتها الشاسعة الواسعة، تكون بحجم قرية بفعل وسائل الاتصالات والمواصلات، حتى لقد أطلقوا عليها (القرية الإلكترونية).. بل إن هناك من صار ينسبها، بفعل شبكات المعلومات وفضائيات الإعلام، إلى (الحجرة الإلكترونية)، كل ذلك مما يجده السالك الجوِّد في طريق الحق من عنت، وهو يغالب نزعات الطمع والجشع، ويقاوم شح الأنفس ونهم الاستهلاك، بينما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢٤٤١، ٣/١٣٤.

تغـريه هذه الدنيا بزخرفها ورياشها ولين عيشها.. ولكنه بإذن الله واجد في هذه المجاهدة والمصابرة أوفى الجزاء وأرضَى العاقبة، وهو يتعاطى من دنياه ما يصـلح بـه ديـنه، حـتى تكـون الدنـيا، بحق، مطيّة الآخرة.. وذلك بأن يأخذ بـأحدث مـا في هـذه التقنـيات مـن وسـائط، فيستخدمها أنفع الاستخدام، لتأدية مقاصد ديننا وإصلاح مناهج دنيانا.

وإذا الـتزم العـالم الـيوم الوسـائل السـلمية للدعـوة والحـوار، بـدلاً عن الصـراع والاحـتراب، فـإن خطاب القرآن هو أقوى وأجلى وأهدى.. وكائناً ما كان الأمر، فإن القرآن العظيم بجاذبيته الخاصة إنما يخترق القلوب اختراقاً بجماله وكمالـه وجلالـه وبساطته أيضاً، وهو نفسـه يبشر بذلك كما في سورة الفتح :
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨).

و لا تزال (الخلاوي) ينبعث من رحابها ما يذكرنا بالعهد الأول، ويتنافس الشيوخ وأهل الخير عامة في إحيائها وإقامتها وكفالتها.. ومما صار لافتاً للأنظار كثرة دور المؤمنات وإقبالهنّ على قراءة القرآن وحفظه، والأكثر استيفاءً لشرط حفظ القرآن الكريم كله أو ثلثه أو عشره، وفق شروط جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية لدخول كلياتها.

ناشئتنا وكنوز التعليم الأصلي:

وأخيراً فإن لناشئتنا حقاً علينا أن ننفعهم بالعلم النافع، فنقدّم لهم ما تمس إليه الحاجة من كنوز التعليم الأصلي، ولعلنا بذلك أن ننال شرف اللحق بركب الإيمان والشهادة به لمن أحبّ الخير لأخيه في دين الله تعالى، كما أرشدنا إلى ذلك رسول الله ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[1].

وما أحسن ما يكون الصدق وإخلاص النية في تقديم هذا النفع للناس رجاء رحمة الله تعالى وما أعدّه لعباده من جزاء الحسنى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى:٣٦). ومن أعظم مجالي نفع الناس رحمتهم، وسوق الخير والبِّر إليهم، ولأن نبينا ﷺ هو نبي الرحمة الذي خصّ بالرحمة للعالمين في سياق ثمانية عشر نبياً ذكروا بأسمائهم في سورة الأنبياء فقال تعالى في وصف خاتمهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، فإن الاقتداء به ﷺ يستلزم استحضار الرحمة بالنّاس في سائر أعمالنا.

والحديث عن الرحمة هو أول ما طرق سمعي طفلاً وطُلب مني أن أعلّمه أيضاً لمن هم أصغر مني، وهو حديث النبي ﷺ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ)[2].

وليس يكفي أن يؤدّى هذا العمل كواجب ثقيل، كما يُقال، بل لابد من بواعث الشوق والحبّ عند القيام بهذه المهمة الجليلة من أجل تزكية المجتمع

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ٧.
[2] سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، حديث رقم ١٨٤٧.

ونشر الفضائل وتربية الأجيال التي تتسلّم راية الحق وتبذل المهج والأرواح في سبيل الانتصار لكلمة الحق..

ومنهج التلقي الخالص للعلم والعمل به دلّ على نفع عظيم، وخاصة للصغار، يتعدّى النفع بهم بعد استقامتهم في أنفسهم لعظم تأثيرهم بما تعلموه في غيرهم، وهم يؤدون في صدق وإخلاص وحبّ عظيم واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم في مأمنٍ من ترك الجهر بالحق كما يفعل كثير من الناس طمعاً في دنيا أو خوفاً على أرزاقهم ووظائفهم وحياتهم، أو بقصد المجاملة أو النفاق الاجتماعي، ولذلك كان هؤلاء الأطفال بما ألفوه من التعليم والأدب سبباً في إصلاح آبائهم وأمهاتهم.

ولا شكّ أن من عوامل حسن التلقي والقبول المحبة المتبادلة بين هؤلاء الدعاة إلى الخير، من ناشئتنا والمدعوين من آبائهم وأمهاتهم ومن اتصل بهم من أهل وجيران، وهم جميعاً مستيقنون أن هؤلاء الناشئين البررة لا يحبون لذويهم إلاّ كل الخير، مثلما أن ذويهم يحبون أيضاً أن يظهر فضل أولادهم بين الناس.

وهؤلاء الناشئون بفضل ما تلقوه من العلم والأدب كانوا سبّاقين منذ يفاعتهم إلى المروءات والمكرمات، فهم عون للعجزة، يقومون بإزالة الأذى من الطرقات، ويحافظون على المظهر العام.

وهم كذلك يحسنون القيام بالواجب، صدقاً وإخلاصاً لله تعالى، لا ليعرف مكانتهم ولا ليُقال فيهم المدح والثناء.

وبهذه المناسبة فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مجالاً للتعبير عن أهواء النفوس أو الانتقام من المخالفين، بل إنه لا يقوم بهذا الواجب

العظيم إلاّ خير الناس، ديناً، وعلماً، وعملاً.

وحسب المؤمنين أن يذكروا حديثاً جليلاً يشهد بالخيرية لأهل القرآن والتّقوى من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والذين امتلأت قلوبهم رحمة فوصلوا أرحامهم، وذلك أنّه لما سئل النبي ﷺ وهو على المنبر: أي الناس خير؟ قال ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ، وَأَتْقَاهُمْ، وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ)[1].

نصائح لأهل القرآن:

إنّ هذا الكتاب كله يقوم ناصحاً لأهل القرآن الكريم في المقام الأول ليكونوا قادة الإصلاح لمجتمعهم، ومع ما تقدّم من ذلك فهذه نصائح قيّمة من هدي الكتاب العزيز والسنة النبوية المشرفة وما اتّصل بهما من الحكم النفيسة نسوقها تذكرة لأهل القرآن ومحبيه، ونسردها لمنفعتهم، ونوجزها في هذه الفقرات:

١- لابدّ لأهل القرآن من المداومة على التلاوة من أجل المحافظة على القرآن الكريم، حفظاً بالغيب في الصدور، مع الاستئناس بحجته وذكر الله تعالى بتلاوته، وفي ذلك جاءت هذه الوصية النبوية: (تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا)[2]. ويتبع حفظ القرآن العظيم إجلاله وفهمه، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر عليه، والجهاد الخالص لله عزّ وجلّ في إعلاء كلمته، والأمر

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤، مسند القبائل، حديث رقم ٢٦١٦٥.

(2) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل القرآن، وما يتعلق به.. وتفصيا: ذهابا وابتعادا.

بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالاً لأحكامه، وحب الخير للنّاس والرحمة بهم اهتداءً بهديه.

٢- ويقترن بطلب القرآن إخلاص النية في أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا، يبلغ بنا ما لا يكون بدونه، فإن النيّة هي روح العمل، ولذلك كان الأمر بها في القرآن الكريم وافراً كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (الزمر:٢)، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة:٥)،﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ (الحج:٣٧).

ودواوين السنة النبوية تفتتح بحديث النية المشهور: (**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**)[1] ولهذا فإن المعلمين والباذلين أرواحهم والمنفقين أموالهم لا يكون جزاؤهم إلاّ بحسب نيتهم.

والقلب مركز الجسد، ويتحقق صلاحه بذكر الله تعالى وتقواه.. وعمران القلب بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، حتى لا يكون عملنا جسداً بلا روح. ولهذا كانت النصيحة النبوية تدعونا إلى أن نصلح دواخلنا حتى تتبعها ظواهرنا، وحقاً:

إذا السِّرُّ والإعْلاَنُ في المُؤمِنِ اسْتَوَى   فَقَدْ عَزَّ في الدَّارَيْنِ واسْتَوْجَبَ الثَّنَا

---

(1) هذا الحديث أول حديث في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

وفي هذا المعنى العزيز يقول لنا رسول الله ﷺ: (أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ)[1].

٣- والنبي ﷺ وهو رءوف رحيم بأمته، حريص على هدايتهم كما يقول القرآن: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)،

ينصحنا أن نعتصم بكتاب الله عزّ وجلّ ونستمسك بالهدى النبوي، فيقول: (تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)[2]. أمّا كتاب الله عزّ وجلّ فهو كتاب هداية: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، ويهدي به الله تعالى من جاء من باب الإيمان : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ (فصلت:٤٤). أمّا السنّة النبوية فإنها لازمة ولا يصح عمل بخلافها كما قال ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)[3].

وننصح أهل القرآن أن يكون اقتداءهم بالنبي ﷺ ليكونوا هم من بعد قدوة الناس، كما رأينا نحن ذلك في أشياخنا، الذين كانوا يدلون على الله تعالى بلسان حالهم ومقالهم.. ولطالما رأينا تخلقهم بجوامع الكلم من الهدي النبوي وهم يعلمون الناشئة الأربعين حديثاً النووية ليدرجوا المدارج إلى جوامع السنة على بينة وبصيرة.

---

(١) البخاري،كتاب الإعانة، باب من استبرأ لدينه وعرضه،ومسلم،كتاب المساقاة،باب الحلال وترك الشبهات.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب القدر، حديث ٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور.

٤- وهـذا خطـاب للمجتمع كلـه، صـغيره وكبيره، ليتأدّب بالهدي النبوي نحو الكبار والصغار وعلماء الأمة، يقـول نبي الهدى ﷺ: (لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)[1].

٥- وللقـرآن العظـيم تـأثير عظـيم عـلى القلوب متى كان اتصالها بالقرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١).

والأمـر المشـاهد في الأرض أنهـا مـتى نـزل الغيـث عليها اخضرّت ونمت وأنبتـت مـن كل زوج بهيج. وقد فطن إلى هذا المعنى مالك بن دينار، رحمه الله تعالى، وهو يخاطب أهل القرآن يقول لهم:

(يـا حملـة القـرآن مـاذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ ، فإن القرآن ربيع المؤمن، كمـا أن الغيـث ربيع الأرض، فإن الله ينـزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصـيب الحـش فـتكون فـيه الحـبة، فـلا يمنع نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسـن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورةٍ؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟)[2].

وأما الإمام النووي فينصح طلاب العلم بحسن الخلق مع العلماء والشيوخ، وذلـك عـند حديـثه عن اختيار المعلم، فيقول : (ولا يتعلم إلا ممن تكمّلت أهليـته وظهـرت ديانـته وتحققت معرفته واشتهرت صيانته)، فقد قال محمد

---

(1) أخرجه الإمام أحمد.
(2) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ١/٣٥٨.

ابـن سـيرين، ومـالك بـن أنـس وغيرهمـا مـن السلف: (هذا العلم دين فانظـروا عمـن تـأخذون ديـنكم)، وعلـيه أن يـنظر معـلمه بعين الاحترام، ويعـتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقته، فإنه أقرب إلى انتفاعه به. وكان بعـض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدّق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب بركة علمه مني)[1].

وكـتابه هذا وهو "التبيان في آداب حملة القرآن" مـما ينبغي أن يطّلع عليه أهله، كيف لا وهم الذين عناهم وجعل عنوان الكتاب نفسه خطاباً إليهم.

٦- إن القرآن العظيم قد نزل بلغة عربية بلغت أرفع مقامات الجمال والجلال والكمـال، وحسـبها ذلـك شـرفاً ومجـداً، وهو كتاب أنزله الله تعالى ليتدبّر الناس آياته، ولا يتأتى ذلك من غير إتقان هذه اللغة. وعلى أهل القرآن أن يجهـدوا في تعلّـم هذه اللغة ليدركوا أسرار الجمال البياني ووجوه الإعجاز التشريعي والعلمي في هذا الكتاب العظيم.

وقـد بلغـت هـذه اللغـة مـن بهائهـا وروائها أن أسرت ألباب الفصحاء والـبلغاء مـن أهـلها، بـل ومـن اتّصـل بها من غير أهلها، ومن غير دين أهـلها، كمـا ذهـب بعضـهم إلى أن هذه اللغة العربية التي نزل بها القرآن لغـة جمـيلة أخّـاذة فتّانة،وأنها لغة تخترق القلوب اختراقاً، وأنها لغة لاينبغي أن يكون المتحدثون بها إلاّ ملائكة، لا بشراً.

ونحـن أولى الـناس احتفاءً بهذه اللغة وإعلاءً لشأنها. ولئن كان غيرنا يرى

---

[1] الإمـام النووي: التبيان في آداب حملة القرآن، ط دار النفائس، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، ص٣٧-٣٨.

لها هذه المكانة فما ينبغي أن ننام عن هذا النور المبين، وما أجمل ما سمعته في محاضرة لشيخنا محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - بقاعة الشيخ محمد البدوي في جامعة أم درمان الإسلامية، وقد احتشد له الطلاب مع شيوخهم حتى إن أحدهم لما رأى ذلك المشهدقل والمورد العذب كثير الزحام، استمعت إليه وهو يفيض بهذه الحكمة النفيسة: الناس رجلان، رجل نام في النور وآخر استيقظ في الظلام. ثم إنه قد أحسن من قل، ولعله الإمام الشافعي:

حفظُ اللُّغاتِ عَلَيْنَا فَرْضٌ كَفَرْضِ الصَّلاة
فلَيْسَ يُعْرَفُ دينٌ إلاَّ بِحِفْظِ اللُّغَاتِ

٧- وإنها مسؤولية يوم القيامة، ولا ينجي من هول الموقف يومئذٍ إلا حسن الاستعداد للجواب يوم الحساب، عمًّا كان منا نحو أعمارنا وشبابنا وأموالنا والعمل بما علمنا.. وهذا حديث نبوي بهذه المحاسبة العادلة: **(لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم)** [1].

إن المستقبل لهذا الدين؛ ومع أننا مطلوب منّا وجوباً أن نعمل ونجتهد ونجاهد من أجل بلوغ هذا المستقبل الموعود به حتماً وقطعاً إن شاء الله تعالى، وإنه لبالغ مداه ولكن ليس بمجرّد عملنا بل لأن الله تعالى وعد بذلك وأخبر به رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، وهي بشارة تصحبها

---

[1] أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة.

نـذارة، فمـا لم نكـن لحـن، كمـا يـريد الله تعـالى بـنا، أتـى الله بخـير مـنّا : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾ (محمـــد: ٣٨)؛ والحمد لله على مبدأ الأمر ومنتهاه ومتقلبه ومثواه.

ثـمّ إنـنا نسـتميح قارئنا فيما قد يكون بدر من ثغرات، فنقول مقالة الإمام أبي سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ) في مقدّمة كتابه "غريب الحديث": (فأمـا سـائر ما تكلّمنا عليه مما استدركناه بمبلغ أفهامنا، وأخذناه عن أمثالنا، فإنـا أحقـاء بألاّ نزكيه، وألاّ نؤكّد الثقة به، وكلٌ من عثر منه على حرف أو معنى يجب تغييره فنحن نناشده الله في إصلاحه وأداء حقّ النّصيحة فيه، فإن الإنســان ضعيف لا يسلم من الخطأ إلاّ أن يعصمه الله بتوفيقه، ونحن نسـأل الله ذلك، ونرغب إليه في دركه إنه جواد وهوب).

وندعـو الله تعـالى بهـذا الدعاء الجامع فـي الآية الخاتمة لسورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

اللهم تولنا ومن وليت علينا بولايتك، ووفقنا وإيّاه للعدل والإحسان، وجنّبـنا وإيّـاه الجـور والظـلم والفسـوق والعصيان. اللهـم انصرنا وجندنا والمستضعفين في الأرض من إخواننا في الدين.

اللهم اغفر لشهدائنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان. اللهم اصرف عنّا كيد الباغين للبرآء العيب والساعين بالفتنة، اللهم كن لنا جاراً من شرهم أجمعين، جلّ ثناؤك وعزّ جارك ولا إله غيرك.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وأهلينا وإخواننا في الدين وأصحاب الحقوق علينا أجمعين.

اللهم اجعل القرآن العظيم أوثق ما يكون حفظاً في صدورنا، وعملاً صالحاً زاكياً بكلياتنا إليك يوم نلقاك بحسن الختام على منهاج النبي ﷺ.

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ)[1]

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات:١٨٠-١٨٢).

ربيع الأول ١٤٢٣هـ/ يونيو ٢٠٠٢م

([1]) أخرجه الترمذي في سننه برقم ٣٤١٢، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، انظر موسوعة الحديث الشريف (حرف)، الإصدار ١، ٢.

إحالات واستطرادات

(١) وعلى ذكر هذه الكلمة، والحديث ذو شجون، فإن مما حفظنا مما سمعنا في مجلس الوالد في عهد الخلوة من لطائف المعارف وجمل البيان العربي ما جاء في أول ثلاثية قطرب عن هذه الكلمة في التمييز بين استخداماتها وفق اختلاف حركة الحرف الأول (فتحاً أو كسراً أو ضماً):

إنَّ دُمُوعِي غَمْر ... ولَيْسَ عِنْدي غِمْر

يا أيُّهذا الغُمْر ... أَقْلِلْ عن التَّعَتُّب

بالفَتح ماءٌ غَمَرا ... والكَسْرِ حِقدٌ سُتِرا

والضَّمُّ شخصٌ ما دَرَى ... شَيْئاً ولَمْ يُجَرِّب

ومما حفظنا قديماً عن هذه الكلمة نفسها، وما يتفرع عنها من معان ثلاثة، هذه اللطيفة عن كلمة الغُمْر (بضم الغين) وهو الجاهل:

يظن الغُمرُ أنَّ الكتبَ تَهْدِي ... أخا فَهْمٍ لإدراكِ العلوم

وما يدري الجهولُ بأنَّ فيها ... غوامضَ حيَّرت عَقْلَ الفَهِيم

إذا رُمتَ العلوم بِغَيرِ شَيْخٍ ... ضَلَلتَ عنْ الصِرَاطَ المُسْتَقِيم

وتلتبسُ الأُمورُ عليكَ حَتَّى ... تصيرَ أضلَّ من (تُومَا) الحَكِيم

هذا وإن (توما) المذكور هنا لم يقرأ على شيخ بل أخذ يقرأ الكتب كيفما اتفق، ويتبع ما فيها من خطأ الرسم بغير دليل، حتى إنه امتهن الطب بغير خبرة إلا ما كان من كتاب انكب عليه فوجد عنده ذكر الحبة السوداء

فقـرأها الحـيَّة السـوداء، وانَّ اهـل بلـده ممن يشتكي الرمد ، داواهم بها فآذاهم فقيل فيه ما تقدم، بل جعلوا يقولون على لسان حماره:

قـــال حمـــارُ الحكـــيمِ تُومـــا   لـو انصـفَ الدهْرُ كُنْتُ أركَب

فـــإنّني جـــاهلٌ بســـيطٌ   وصـــاحِبِي جهلُـــهُ مُرَكّـــب

وهـي مشكلة حقاً أن يكون الإنسان جاهلاً، وأكبر من ذلك أن يجهل أنه جـاهل وهـو اسـوا حـالاً من الجاهل البسيط الذي يعرف قدر نفسه من الجهل.

ولهذا يرى العلماء أن العلم المعتدّ به هو ما كان تلقيه عن أهل الرسوخ والإتقان، ونصحوا بذلك طلاب العلم، حتى قيل:

من يـأخذ العلم عن شيخ مشافهةً   يكن من الزيغ والتصحيف في حرم

ومن يكن آخذاً للعلم عن صحف   فعِـلمهُ عـند أهـل العـلم كـالعدم

***

وكما قيل في شأن تهوين اقتناء الكتب والاستكثار منها من غير تحصيل حقيقي:

مـــا العـــلمُ مخـــزونُ كُتْـــبٍ   لديـــكَ مـــنها الكَـــثِير

لا تحســــبَنْكَ بهـــذا   يومـــاً فَقِـــيهاً تصـــير

فللدجاجـــــة ريـــــشٌ   لكـــــنَّها لاَ تطـــــيرُ

وحقاً فإن الكتب وحدها لا تكفي، ولا مجرد حفظ الآثار من غير فقه دقيق وصحبة ممتدة:

لَيْس يُغْنى عَنْ جَاهلٍ قولُ مُفْتٍ عن فلانٍ وقولُه عن فلان
من أتاهُ مُسْترشِداً أفتاهُ بحديثينِ فيهما مَعْنيَانِ

أو كما قال الشيخ الناصح لطلاب العلم أن يتحققوا بجملة النصائح التي يجمعها قولهم:

أخي لَنْ تَنَال العِلْمَ إلاّ بِستَّةٍ سَأُنْبِيكَ عن تَفْصِيلها بِبَيَان
ذكاءٌ وحِرصٌ واجتهادٌ وبُلْغَة وصحبةُ أستاذٍ وطولُ زمان

وبعبارة أخرى قالوا:

شروط العلم أربعة فأولها التفرغ له
ودرس ثم فهم ثم حملكُه عن الحمله
شروط من تكن فيه وَإلاَّ لَمْ يَنَلْ أمَلَه

(٢) سئل الشيخ عليش المتوفي ١٢٩٩ هـ (وهو أبو عبد الله الشيخ محمد أحمد عليش وذلك كما في كتابه "**فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك** ﷺ": ط دار المعرفة بيروت، ج ٢، ص ٣٦٠) عن حكم تعليم الصبى كتابة البسملة وغيرها من القرآن الكريم على أرض طاهرة ليتوصل من ذلك إلى الكتابة على اللوح، فأفتى بالمنع تجنباً من أن تطأها الأقدام أو النعال..

ونحن مع الشيخ الجليل في تعظيم كتاب الله الكريم، وكل ما يتصل بـــه من علم، ووسائل للتعليم، وندعو إلى الالتزام بهذا التعظيم، والحفاظ على هذا التأدب، غير أن الشيخ الجليل قد أفتى في مسألة ربما غابت عنه حقيقة ظروفها.. وجلية الأمر ما يلي:

أ/ أن هذه الجهات المعنية بهذه الإشارة من نحو بلادنا قد كانت فيها أحوال طلاب العلم متواضعة مع شدة الحاجة (الفقر)، ولكنهم كانوا على قدر عظيم من شدة الرغبة في تعلم القرآن ، فلم يكن أمام الصبية الصغار، في مـــثل هذه الظروف ، إلا بداية التعلم بالكتابة على الأرض الطاهرة، ريـــثما ينتقلون إلى الكتابة عن طريق اللوح، لا سيما و أناملهم الصغيرة الرقيقة ربما كان أهون عليها أن تكتب على الرمل ولا تحتمل التعاطي مع الأقلام (البوص) وألواح الخشب..

ب/ ثم إن الأرض الـــتي كانوا يكتبون عليها قد جُلِبَ لها الرمل من صـــعيد طاهـــر، وحسبه أنه قد سقاه النيل وغسله، ثم ألقاه طهوراً على شـــاطئيه، ولقد كانوا مع ذلك حريصين على خلع النعال، في أديم الخلوة بأجمعه، ناهيك عن هذه الأرض المخصوصة ، والتي يوالون مسحها حتى لا تتعرض لوطء الأقدام الحافية..

ج/ ولقد كان موضع الشيخ والحيران أنهم كانوا جميعاً جلوساً على الأرض لا يرتفعون عنها بمقاعد، مما لا يقوم معه اعتبار العلو والدنو، تجاه ما يكتبونه على الأرض..

د/ ولقد كانت كتابة القرآن الكريم، عند نزوله، تجري على ما تيسر مما كان متاحاً يومئذ من نحو العظام وجريد النخيل والجلود، و ربما كانت هـــي ذريعة لمن اتخذ أسلوب الكتابة على الأرض في تعلم القرآن الكريم حتى توفرت الوسائل الحديثة..

هــــ/ ولا أحســب الصــبية الصغار في عصورنا الزاهرة من لدن الصــحابة رضـــي الله عنهم إلا أنهم كانوا يتعلمون الكتابة على وسائل متواضــعة، حيــث كان كبارهم يكـــتبون على نحو العظام والجلود وجريد النخيل..

واليوم ينتقل تعلم القرآن من لوح الخشب إلى لوحة الحاسوب ولا يسأل أحــد إن كانت اللوحة تعرض القـــرآن وحده، ما دامت المادة قابلة للمحو والإثبات..

ز/ أمــا الأحاديث النبوية، التي ساقها الشيخ عليش للاستشهاد بها عــلى ما ذهب إليه فإنها بغض النظر عما في سندها، لا تتعلق بهذه الحالة من تاريخ الخلوة في بلادنا..

(٣) هو الإمام العالم بن فيُّره بن خلف بن أحمد أبو محمد وأبو القاسم الرعيني الشـاطبي المقرئ الضـرير، ولد في آخر سنة ٥٣٨هـ في شاطبة بالأندلس، وتـوفي بمصر سنة ٥٩٠هـ .. قال الإمام ابن الجزري عنه في (غاية النهاية في طبقات القراء، عُني بنشره برجستراسر،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـــ٢/٢١) (كـان إمامـاً كبيراً أعجوبة في الذكاء، كثير الفنون، آية من آيات الله تعالى، غاية في القراءات، حافظاً الحديث، بصيراً بالعربية،إماماً في

اللغة، راساً في الأدب مع الزهد والولاية والعبادة والانقطاع والكشف، شافعي المذهب، مواظباً على السنة).

وهذا بيان لمعاني ما قد يحتاج إلى شرح من كلمات الأبيات المتقدمة من قصيدة حرز الأماني ووجه التهاني للإمام الشاطبي:

وإن كتابَ اللهِ أوْثَقُ شَافِعٍ   واغنَى غناءٍ واهِباً مُتَفَضِّلا

(أغنى غناء): يقال غني الرجل: إذ كثر ماله، وغني بالمكان إذا قام به كما في قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ (يونس:٢٤).

وخيرُ جليسٍ لا يُملُّ حَديثُه   وتَرْدَادُه يَزْدادُ فيه تَجمُّلا

(لا يُملُّ حديثه): كل قول مكرر مملول إلا القرآن، فإنه كلما كرر حلا فهو خير جليس، وكيف يمل وهو أحسن الحديث، كما قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر:٢٣).

وحيثُ الفتَى يَرْتاعُ في ظُلُماتِه   من القبرِ يلقاهُ سَناً متهلِّلا

(يرتاع): راعه يروعه روْعاً فارتاع: أي أفزعه، ومنه يوم الروع. والسنا: الضوء.

هنالك يَهنيه مَقِيلاً وروضةً   ومن أَجْلِه في ذِرْوَةِ العِزِّ يُجْتَلى

(مقيلاً) وأصل المقيل: القائلة، ولا تكون إلا لصاحب مقر وذي مكان وإمكان. فإن كان المقيل في ظل ظليل وروض أنيق فهو أبلغ في حسن الحال.

(ذروة): وذروة كل شيء أعلاه تضم وتكسر، والجمع ذُرَا.

(يُجتَلى): ينظر إليه بارزاً.

يُناشـــدُ في إرضـــائه لِحبيـــبه   واجـدِر بـه سُـؤْلاً إلـيه موصَّـلا

(يناشـد): يكـثر المسـألة، والهاء في إرضائه للقرآن، أي يسأل ربه يعطيه ما يرضله، وأراد بهذا شفاعة القرآن لصاحبه وهو جدير بأن يُجاب، وقد وعد الله أهـل القـرآن بضـــروب مـن الخـيرات لا تخفى مواضعها في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

فـيا أيّهـا القـارئ بـه مُتمسِّـكاً   مُجِـلاً له في كـلّ حـالٍ مُـبجِّلا

(مجلاً له): معظـمـاً له، ومـن إجلالـه اجتـناب حاملـه كـل ما يشين من الأفعل المسْتقبحة.

هنيــئاً مَريــئاً والـدَاكَ علَــيْهِمَا   ملابـسُ أنـوارٍ من التَّاج والحُلا

(هنيـئاً): منصـوب عـلى الحـال، أي ثبـت لك هنيئاً مريئاً، أو على نعت وصف بمعنى عش عيشاً هنيئاً، والهنى الذي لا آفة فيه.

(مريئاً): والمرئي المأمون الغائلة (أي الشر).

والحُلَي: جمع حِلْية، يقل حلية وحُلي ولِحيه ولُحي في أشياء قليلة خرجت عـن القـياس الـذي هـو كسر أوائلها في الجمع كما في الإفراد وليس في الحديث ذكر الحلي، والمعنى يقتضيه لأن المتوَّج يكون في أكمل زينة.

فمـا ظـنّكم بالـنَّجْل عـند جَـزَائِه   اولئك أهْلُ الله والصفوةُ الملا

(فما ظنكم): ومعناه ظنوا ما شئتم من الجزاء لهذا الولد الذي أكرم والداه، كما سبق الحديث، (فما ظنكم بالذي عمل بهذا).

(النّجل): الولد.

(الصفوة): بالفتح والكسر لغتان فصيحتان، والضم أيضاً محكيٌّ فيها وهو الخالص.

(الملا): الأشراف والرؤساء وجماعة الرجل أيضاً.

أُولُو البِّر والإحسانِ والصَّبرِ والتُّقى   حُلاهُم بها جاءَ القُرآنُ مُفَصّلا

(حلاهم): وصفاتهم.

جاء بها القرآن مفصلاً كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وكقوله سبحانه: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٨).

جمع بر وهو الكثير النافع.

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)، (الذاريات: ١٦).

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).. ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (الرعد:٢٢).

وقوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢).

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (البقرة:٣).

إلى آخره، وذلك كثير في القرآن.

عليك بها ما عِشتَ فيها مُنافساً		وَبِع نَفْسَك الدُنيا بأنفاسِها العُلا

(عليك بها): الزمها وبادر إليها منافساً، وهو منتصب على الحال.

(الدنيا): يعني بها الدنية من حيث اتصفت مبدءاً ومآلاً.

(بأنفاسه): بأرواح طيبها التي هي علاً في المبدأ والمآل، قال الله تعالى معلماً مميزاً له من اتصف بها ونافس بها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ (فصلت:٣٠) إلى آخره.

وإلى جانب ما تقدم من قصيدة "حرز الأماني" للإمام الشاطبي، فقد تضمنت تلك القصيدة جملاً من الآداب والحكم العالية والنصائح النفيسة، ومنها على سبيل المثال في (باب التكبير):

رِوَى القَلبِ ذكرُ الله فاستسقِ مُقْبِلا		ولا تعدُ رَوضَ الذاكرين فتُمْحِلا

(وروى القلب هو: رَيُّه أو رِيُّه من ذكر الله عزّ وجلّ).

وآثر عن الآثار مَثراةَ عذبه		وما مثلُه للعبد حِصناً وَمَوْئِلا

(والمثراة من قولهم: هذا مثراة للمال، أي: مكثرةٌ له، أي: آثر مكتسب عذبه ومُكثرته، والمثراة أيضاً، مصدر ثَرِي المكان يَثْرِي ثرىً، ومثراة إذا كَثُرَ نداه وبلُّه، أي قدِّم كثرة عذبه أو ندى عذبه على كل شيء آخذاً ذلك من الآثار أو الأصول).

ولا عَمَلٌ أنْجى لَهُ من عَذابِه		غداةَ الجَزَا من ذِكرِه مُتَقَبَّلا

(اي ليس هناك من عمل ينجي من العذاب مثل ذكر الله).

ومن شَغَلَ القُرآنُ عَنْهُ لِسَانَهُ   يَنَلْ خَيْرَ اجْرِ الذاكرينَ مُكَمَّلا

(أي من شغلت تلاوة القرآن لسانه فله خير اجر الذاكرين؛ لأن تلاوته نفسها ذكر لله تعالى).

وما أفضَلُ الأعمالِ إلا افتِتاحُهُ   مع الخَتْم حِلاً وارتَحِالا مُوَصَّلا

(اي افتتاح القرآن مع ختمه)

انظر فتح الوصيد في شرح القصيد- للإمام علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ)- ج١، دراسة وتحقيق، رسالة لنيل الدكتوراه، للعام الجامعي ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، د.أحمد عدنان الزعبي، ص٦٥، ٦٦. (وقد ظلت المخطوطة على هيئتها لم تُطبع لأكثر من سبعة قرون، حتى قَيَّض الله لها إحياءها محققة في بلادنا، وشرّفنا بالإشراف عليها).

(٤) الإمام السخاوي: فتح الوصيد في شرح القصيد١/٥، مصدر سابق في الإحالة السابقة برقم ١٥.

وهي عبارة قوية التأثير تدعونا إلى محاسبة أنفسنا فيما نفعل أو نذر أو نقدم عليه أو نحجم عنه، ولئن كان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى قد ألفّ كتابه "الموطأ" وقد تطهّر وتعطّر وصلى في الروضة النبوية وهو يسجل أحاديثه بكتابه، الذي وجد القبول والاستحسان، وعندئذ جعل من لم يكن يملك نيته وإخلاصه يؤلف ما يسميه الموطأ أيضاً، ولما أخبر مالكاً بعض تلاميذه بذلك، ما زاد على أن قال: (ما قصد به وجه الله

يعلو). وقدر الله تعالى الا يبقى في المخطوطات أو المطبوعات غير موطنه.

لئن كان الإمام مالك قد نال بفضل عمله في الروضة النبوية ما تقدم، فإن الإمام الشاطبي أيضاً كان يطوف بالبيت ويصلي في المقام وهو يملى أبيات قصيدته البالغة (ثلاثة وسبعين ومائة وألفاً). ولعل ذلك الإخلاص هو سبب البركة في عملهم وعلمهم وتأليفهم وكلماتهم الطيبة.

واذكر انّي لّما قرات هذه المقالة للإمام الشاطبي من مخطوطة السخاوي على شيخنا الأستاذ أحمد محمد صادق الكاروري، تأثّر لها وتجاوب بالبكاء معها فأسعده أخوه الشيخ محمد الذي طالما أعجبنا منه رؤيته لنفسه كالطفل أمام أخيه الكبير، ثم تبعهما من كان في مجلسهما يومئذٍ

(٥) هو شيخنا العلامة الأستاذ محي الدين محمد حاج الشاذلي، وكان يقيم في حفير مشو ثم ووري ثراها بعد عمر مبارك في نشر العلم والفضائل والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان له أثر صالح وتلاميذ كما في مسقط رأسه بدنقلا، وحيث حلَّ وارتحل في النيل الأبيض والقطينة خاصة، وقد كان من قبل إماماً وخطيباً في مصر، وكانت بينه وبين الوالد مكاتبات أدبية فيها إمتاع ومؤانسة وعلم غزير، وقد حظيت منه برسائل مشتملة على نصائحه وتوجيهاته، ومنها ما كان مواساة في وفاة الوالد رحمه الله تعالى، وأذكر منها:

نحنُ زرعُ الموتِ والقبرُ بَيْدَرُنَا
نحن الترابُ إلى ترابٍ نرجِعُ
وهناك نَحْصُـدُ تَحْتَه ما نَزْرَعُ

وطالـب العـلم يفهم من هذا السياق أن هذه الكلمة الغريبة (البَيْدَرُ) تعني المكان الذي تجمع فيه سنابل القمح عند الحصاد.

ومـا انمحـت من ذاكرتي صورته وهو في شيخوخته وقد رآني مقبلاً عليه فاجـتهد كثيراً في أن ينهض من مصلاه ليعانقني في شوق وحنين وتفيض عينه من الدمع وهو ينشدني:

أبـوك حَبِـيبي قَــدَّسَ اللهُ رُوحَـه وأنْتَ حبيبٌ وابنُ الحبيبِ حَبِيبُ

(٦) وهــــذه تـرجمة موجزة للأمام الصرصري تدل على مكانته العلمية وفضله في الجهاد:

هـو يحـي بن يوسف بن يحي بن منصور بن المعمر عبد السلام الشيخ الإمـام العلامـة الـبارع الفاضـل في أنـواع العلـوم، جمـال الديـن بـن زكـريا الصرصـري، الفاضـل المـلاح الحـنبلي الضـرير البغدادي، معظم شعره في مدح رسـول الله ﷺ وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر، ويقال أنه كان يحفظ صحاح الجوهـري بـتمامه في اللغـة. وصـحب الشـيخ علي بن إدريس تلميذ الشيخ عبد القادر، وكان ذكياً يتوقد نوراً، وكان ينظم على البديهة سريعاً أشياء حسنة فصـيحة بلـيغة، وقـد نظـم الكـافي الـذي ألفه موفق الدين بن قدامة، ومختصـر الخـرقي، وأمـا مدائحه في رسول الله ﷺ فيقال إنها تبلغ عشرين مجلداً

وما اشتهر عنه أنه مدح من المخلوقين من بني آدم إلا الأنبياء ولما دخل التتار إلى بغداد واجههم بما استطاع، وأعد في داره حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار، فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم، ثم قتلوه شهيداً رحمه الله تعالى، وله من العمر ثمان وستون سنة[1].

(٧) وهذه سيرة مختصرة لفضيلة الشيخ صالح علي الأزهري مقتبسة من الترجمة [المعدة تعريفاً بالشيخ وخلوته، وأصلها بمكتبة حفيده الشيخ صلاح محمد صالح وصورة منها بمكتبة الشيخ عبد الله محمد صالح رحمهم الله تعالى]:

ولد الشيخ صالح علي الأزهري عام ١٢٥١هـ تقريباً، وتعلّم القرآن الكريم على أشهر قراء أهل بلده بالقراءات السبع، بل وبالعشر، ثم أجازه من بعد السيد محمد علي اليماني الإدريسي بالسبع، وبالطريقة المنسوبة لجده السيد أحمد بن إدريس، ثم هاجر إلى مصر لطلب العلم والتحق بالأزهر الشريف، ومكث به نحواً من تسع سنين يأخذ العلم من مشائخه، وخاصة الشيخ البسيوني المالكي والشيخ عليش، ثم اجتمع بالسيد محمد سر الختم الميرغني، وبعد ذلك رجع إلى بلدته (إرتدي) وجلس للتدريس بمسجده حسبة لله تعالى، وتفرغ له بعد ما استعفي من وظيفة القضاء التي عمل فيها نحو سنتين، وعيّن (المدرس الأول) بعد ذلك بجامع دنقلا، ولم يزل كذلك إلى أن توفي ليلة الأحد الموافق ٧ ربيع الثاني ١٣٣٦هـ وله من العمر نحو الثمانين وخمسة من الأعوام قضاها بين الإفادة والاستفادة

---

(١) انظر ابن كثير، كتاب البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١١.

من العلم النافع ونشر فضائل البّر والتّقوى.

وأخذ عنه العلم كثيرون ممن وفد عليه لما سارت الركبان بعلمه الغزير وسيرته الحسنة.. ويعدُّ جل الشيوخ الذين وردت أسماؤهم في هذا الكتاب ممن تلقى عليه العلم، ولئن كان المشاهير بينهم عدداً وافراً فإن سواهم كان أكثر.

وفي الترجمة نفسها قائمة بأسماء أعلام ممّن عملوا فيما بعد بالتدريس ووظائف الدولة. فممّن صاروا مدرسين: الشيخ محمد صالح علي الأزهري، والشيخ محمد فضل، والشيخ أحمد عبد الرحمن، والشيخ علي أبو عوف؛ وممّن صاروا أئمة الشيخ عبد الرءوف محمد صالح في مسجد والده، والشيخ سليمان مدني في جامع دنقلا؛ وممّن صاروا موظفين في دواوين الدولة علي أفندي أحمد الصرّاف، والشيخ أحمد محمود نائب المأمور.

وذلك يعني أنه وخاصة قبل إنشاء المدارس التي اقتصر على خريجيها التوظيف عامة، كان عدد مقدر من خريجي هذه الخلوة قد التحق بوظائف علمة إدارية ومالية.

هذا وقد أخذ العلم عن الشيخ صالح علي الأزهري شيوخ اشتهروا فيما بعد بحسن سيرتهم وأثرهم، وقد تفرغوا لتعليم القرآن ونشر العلم، وكانوا الأكثر عدداً والأبقى أثراً، وقد سبقت الإشارة إلى عدد منهم من خلال صفحات هذا الكتاب، وممّن لم يسبق لهم ذكر وظلّ أثرهم حيّاً مذكوراً الشيخ محمد ساتي، والشيخ حاج الأمين في بورتسودان، والشيخ

عبد الرحمن محمود من أرقو، والشيخ تاج الختم خيري في فريق من ضواحي دلقو بالمحس.

ثم إنَّ الشيخ محمد فضل محمد والمشهور بالشيخ (محمد طمية) نسبة إلى والدته (تمية) وربما نُطقت (طمية) بالطاء، ممّن يتصدر قائمة الشرف في خريجي خلوتنا، وقد ملأت سيرته آفاقنا لكونه مع صلاحه المعهود قد أقام زماناً طويلاً بعد وفاة شيخه في خلوته، يقرئ ويُعلِّم، إلى أنْ تحوّل إلى خلوته الخاصة بين أهله في (أبتّة) من ناحية أرقو الشرقية، ويخبر عنه أحفاده أنّه قد حفظ القرآن الكريم بجزيرة مقاصر لدى الشيخ حمد أورباب، ثم التحق بخلوتنا لتلقي علوم الشريعة واللغة العربية. وكان شيخنا الذي قرأنا عليه الشيخ محمد إبراهيم الطيِّب الحدّاد قد أكمل عليه القراءة بعد وفاة شيخهم صاحب الخلوة المعروفة باسمه الشيخ صالح علي الأزهري.

(٨)هو الشيخ حسين عبد القادر سيرِبّل كان يقيم في أوربي بريفي القولد لم ينقطع عن طلب العلم والعبادة وصلة الأرحام والأخوة في الله تعالى، مع الدعاء لتلك الصحبة، والحمد لله حيث كان شيخه والدنا – رحمه الله تعالى– واحداً من هذه الصحبة، وكذا صاحبه الشيخ علي محمد إبراهيم، رحمه الله تعالى، الذي كان يجاوره في الخندق على مسافة تزيد عن عشرة أميال يقطعها على راحلته من حيث كان يقيم في أوربي. وقد كان السفر إلى الحج في زمانهم على مثل هذه الركائب والمطايا ٠

ولربما كان حداؤهم من نحو قول المحب المشتاق في الطريق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة:

مَا لِمَطَايَانَا تَمِيلُ مَالَهَا   اظُنُّ رَمْلَ رامةٍ بَدَالَهَا
لاَ تَحْسَبَنَّ مَيْلَهَا مِنْ مَلَلٍ   وإنَّما سُكْرُ الهَوَى أمَالَها
تجِدُ وَجْداً في الحُزُونِ كُلَّما   تَذَكَّرَتْ من يَثْرِبٍ أطْلاَلَهَا
وإنْ حَدَا الحَادِي بِذِكْرِ طَيْبةٍ   هَيَّجَ ذكر طيبةٍ بَلْبَالَها
فشوقُها يدفعُها حَتَّى تَرَى   آمالَها هُناك أو آجَالَها

وكان يحدثني وأولاد صاحبه عن هذه الصلة الأخوية وكانوا جميعاً يتزاورون ثم يعقدون مجالس يتذاكرون فيها مسائل في العلوم الشرعية والعربية.. اللهم اغفر لهم اجمعين واحفظهم في خلفهم إلى يوم الدين، لقد كانت هذه الصلة الموصولة بين الأجيل ميراثاً روحياً يفوق بآماد بعيدة كل المواريث المادية الفانية الزائلة..

(٩)وهي خلوة الترعة (بالسير) في محافظة دنقلا، وشيخها المشهور كان هو الشيخ حسن محمد نور بجة رحمه الله تعالى،والعجب أن الفيضان قد أزال المسجد الجديد وبقي المسجد القديم رغماً عن كونه على ضفاف النيل. وسبحان الله فقد مضى هذا الشيخ إلى رحمة الله تعالى، ولحق به بعد قليل من خلفه من ولده وهو الشيخ محمد نور حسن، رحمهما الله تعالى..

هـذا وقـد حفـظ الشيخ حسن محمد نور القرآن الكريم في خلوة جزيرة مقاصـر، الواقعـة شمـال شـرق مدينة دنقلا، وكانت من أشهر (الخلاوي)، وكـان شـيخها المشـهور يومئذٍ هو الشيخ هارون بشير جوى، الذي خلف والده في شياخة خلوة آبائه التي حفظ فيها القرآن الكريم، وأخذ العلم في خلـوة الشـيخ صـالح علـي الأزهـري رحمهـم الله تعالى. وقد خلف الشيخ هـارون مـن بعـده ابـنه الشـيخ بشـير، وقد شرعت هذه الخلوة في تجديد العودة الحلوة.

(١٠)هـو الشـيخ هاشـم الحـاج إسماعيل حفظ القرآن في خلوة آبائه بالغابة، ثمّ لازم حلـق المساجد حتى التحق بمدرسة العرفاء و تخرج فيها معلّماً إلى أن ترقّى موجّهـاً تـربوياً، ثـم الـتحق بمؤسسـة إحـياء نار القرآن الكريم، رحمه الله تعالى وأحسـن لقاءه. وقد أدركت هذه الكرامة كل واحد منهم بنصيب وافر حتى إنه لم يحـرم مـن هـذه الكـرامة الخاصة بأهل القرآن أخ لهم شغله عن قراءة القرآن انشـغاله بـتدبير معـاش الخلـوة وأهلها، معتمداً على وسائل الزراعة التقليدية الـتي كانـت تسـتغرق الأوقـات كـلها، وتستخدم في الري (السـواقي) النواعير ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الجمعة:٤).

(١١)وقـد بقـي في الذاكـرة من أسماء أولئك الضيوف الأعلام الكرام الشيخ السيد أحمد المعز لدين الله الإدريسي، الذي كان قدومه إلى خلوتنا من (أرقو) حيث كان يقيم، وهو من الذين لزموا الوالد وتخرجوا عليه، وله إجازة بقراءة القـرآن الكـريم وإقـرائه بالسـند المتّصـل، شأن أهل العلم الذين لهم حفاوة

وعناية بالسند العالي والإجازة العلمية.. وعلى ذكر الأسانيد والإجازات العلمية فقد كان السيد محمد عبد العال الإدريسي من أهل العلم، الذين يحملون إجازات علمية عالية عن أشياخ متقدمين، ومن ذلك على سبيل المثال انه أجاز الوالد بسنده (سند المعمَّرين) المتصل إلى الإمام البخاري برواية كتابه المشهور (الجامع الصحيح).

ومازلتُ اذكر من زارنا في خلوتنا وصرفنا الشيخ لبقية اليوم احتفلاً به، وهو الأستاذ الأزهري الشيخ عبد الرحمن محمد صالح إمام المسجد العتيق بالخرطوم، وهو وشقيقه الأكبر الشيخ عبد الله محمد صالح، ووالدهما من الجيل الأول الذي حفظ القرآن الكريم في خلوتنا نفسها..

(١٢)هذا المعهد المشهور قام على إنشائه الشيخ عبد العزيز شروني رحمه الله تعالى، اما (مؤسسة إحياء نار القرآن الكريم) فقد أُنشئت عام١٣٨٤ هـ- ١٩٦٥م وتولى إدارتها عالم جليل هو الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد إسماعيل البيلي يعاونه أشياخ فضلاء من أهل العلم والذكر، وقد تمكن من التعاقد مع عدد من العلماء الأجلاء في القراءات من أشياخ مصر و هم كانوا أربعة مشائخ هم: الشيخ محمد سليمان صالح، والشيخ محمد فريد الصبّاغ، والشيخ محمود برانق، والشيخ أمين محمد إبراهيم رحمهم الله تعالى، وقد تهيأ لكثير من أهل السودان أن يراجعوا قراءتهم التي حفظوا بها أو القراءات القرآنية المتواترة.

وقد كان هؤلاء الشيوخ انتدبوا للتدريس في معاهد القرآن التابعة لمؤسسة (إحياء نار القرآن) بموجب إتفاقية بين وزارة الأوقاف المصريّة، ووزارة الشؤون الدينية بالسودان.

آراء علماء فضلاء:

لقد كان لعدد من إخواننا العلماء آراء وانطباعات حول الطبعات السابقة للكتاب، وهم مشكورون في عنايتهم بالكتاب وموضوعه، والخلوة من بعد جديرة بحفاوتهم، ونسأل الله تعالى أن يجزيهم خير جزائه، وأن يتولانا وإياهم في الصالحين من أوليائه، وأن ينفعنا بصالح دعائهم وحسن ظنهم، وأن يجعلنا خيراً من ذلك، وأن يغفر لنا ما دون ذلك.

كما ندعوه عز وجل أن يتقبل هذا الجهد منَّا وإياهم، وأن ينفع به، وربنا الرحمن المستعان.

ولعلنا نقتبس من تلكم الكلمات ما يخدم المقاصد التي يتوخاها هذا الكتاب، فها هو مصلح اجتماعي معني بالمدارس القرآنية يقول في انطباعاته عن الكتاب في مقدمته للطبعة الأولى، مع نصيحة خاصة موجهة إلى المجتمع لرعاية تعليم القرآن الكريم: (وعلى كلٍ فإن دارس القرآن من خلال المزج بين النظامية والقرآنية قد صار في حالة حلوة يغبطه عليها الأولون من جيل أخينا الشيخ أحمد الذين صبروا، والآخرون من تلاميذ اليوم الذين فرّطوا فَفرُطوا.. والنداء لهم ولكل واحد من آبائهم وأمهاتهم أن الحق الحق لا يفوتنكم التراث الميسر. إننا نوصي المجتمع المدني وقد استقر بحاضرته هذا النموذج أن يحسن استضافة المعلمين الشيوخ فقد درسوا بالصبر فلننقلهم إلى الشكر بشكرنا لهم رعاية كما يرعون أبناءنا. إن أهلنا غفر الله لهم كانوا يكرمون المهاجرين بالقرآن، أما نحن الآن فنكرم

الشيوخ ليكرموا أبناءنا بالقرآن:

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ (الحشر:١٠)[١].

وحول تجربة هذه العودة بالذكرى والخاطرة إلى الخلوة، مهد التعليم الأصلي، قال أستاذ فاضل حرّك وجدانه حديث "الخلوة والعودة الحلوة" في انطباعه عن هذا الكتاب: (وتجربة عودته هذه وحنينه فيها رمز لكل تجربة الأمة الإسلامية، التي تقلّبت بها صروف الأيام والمحن، فاحتضنتها مناهج الغرب حيناً، وتلقفتها نظم الشرائع وألوان الفلسفات، وتفرّقت بها السبل.. ثمّ إن كل شيء في العالم يخبر بأن وجدانه يحن إلى العودة حلوة مرّة، سهلة صعبة، ذلك معنى الأحداث، وتأويل الأحلام، ومنطق الحال واللسان، أن لابد من عودة إلى الأصل، وأصل الأصول هو القرآن الكريم)[٢].

وفي سياق الفضل في تعلُّم القرآن الكريم يقول أيضاً شيخ فاضل عميق المعرفة، عتيق الخبرة، وهو يعلّق على الكتاب: (هذا الكتاب يُحبِّب إلى خريجي خَلَوات القرآن أن يعود الزمان بهم القهقرى، حتى يدرجوا في رحابها مُصبحين ومُمسين، وعلى ترابها وألواحها كاتبين، حروف الهجاء التسعة والعشرين، وفي مراحلها الخمس مُتَدرِّجين، ولألواحهم حاضنين، مرددين الأحرف نفسها، والكلمات أعْينها، والجمل ذواتها، التي كان قد أوحاها الربُّ الرحيم الغَفُور، إلى النبي الرحمة الطهور، ﷺ.

---

(١) وردت هذه الانطباعات في افتتاحية الأستاذ عبد الجليل النذير الكاروري للكتاب في طبعته الأولى المخصصة لجمعية الإصلاح والمواساة.

(٢) وردت الفقرة في انطباعات الأستاذ الدكتور عبد الرحيم علي محمد إبراهيم عن مشروع الكتاب.

فكلما خالطت هذه الكلمات الربانية نفوسهم الغَضَّة، جرت على ألسنتهم أصواتاً عربية، تحمل معاني ربانية، وَهَبَتْ الألسنة الإفصاح والقلوب الانشراح، وانعكس أثرها على الأخلاق فكانت راقية، وعلى الأرواح فكانت سامية.

وكيف لا يكون للقرآن ذلك الأثر، وهو منهاج الخالق للمخلوق، أنزله بلسان من اصطفاه ليكون خاتماً للمرسلين.

والخلوة هي البقعة التي منها تنبعث أضواؤه وتشرق أنواره، حيث تتلقاها البراعم من ذكور وإناث)[1].

ويجدر أن نسجِّل هنا شيئاً من انطباعات معلِّم داعية فاضل ما يزال منهج الخلوة حيّاً في ذاكرته، يقول حول الذكرى والخاطرة التي هاجها هذا الكتاب، وهو يبعث بالتحية الوجدانية إلى أهل القرآن، وأهل البِّر بأهل القرآن: (وأُحَيِّي أولئك المشايخ الذين نذروا أنفسهم لتعليم القرآن لأبناء المسلمين، فرضوا بالقليل وقدموا الكثير، ابتغاء مرضاة الله.

---

(١) من كلمة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إسماعيل البيلي في تعليقه على الطبعة الثانية لمشروع الكتاب. وأمّا المراحل الخمس لتعليم القراءة والكتابة في الخلوة فهي:

المرحلة الأولى: حفظ الحروف الهجائية بأسمائها مثل: باء.. تاء.. إلخ.

المرحلة الثانية: حفظ الحروف بالحركات، كانوا يعلموننا: (بَ) باء نصب.. بِ خفض (بُ) رفع (بْ) أبجزم - وهكذا.

المرحلة الثالثة: الحروف المشدّدة .. كانوا يعلموننا: بَّ أبًا شدّة وفتحة، (بِّ) أبِّي شدة، وكسرة، (بُّ) أبُّو شدة وضمة .. وهكذا.

المرحلة الرابعة: اتصال الحروف الهجائية بحروف المد .. كانوا يعلموننا: (با) جاب ألف .. (بي) جاب ياء .. (بو) جاب واو ألف.

المرحلة الخامسة: الحروف عندما تنون .. كانوا يعلموننا: (بً) بَنْ فتحتين .. (بٍ) بِنْ كسرتين.. (بٌ) بُنْ ضمتين..

وأحيي أولئك الرجل، الذين انفقوا على هذه المدارس القرآنية من طيّب أموالهم، فضربوا بذلك اروع الأمثل لأهل الدثور من اصحاب الأموال بإنشاء المدارس وإيواء طلاب العلم وسد حوائجهم من الطعام والشراب والكساء والعلاج.

كما أُحيي أولئك الصبية الصغار، الذين أُخذوا من حجور أمهاتهم وهم في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم ودفعوا إلى "المسيد" ليقضوا طفولتهم في محاريب التلاوة، تحفهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، ثم عاشوا بعد ذلك شبابهم وهرمهم يتلون القرآن ويعلّمونه الناس إلى آخر نفس من أنفاسهم، فرضي الله عنهم وعن إخوانهم الذين سبقوهم والذين جاءوا من بعدهم خير ما يجزي العاملين لإعزاز دينه وتعليم كتابه)[1].

وعن مشاهد الخلوة التي تميز بها منهج الخلوة التعليمي، يذكر أستاذ فاضل في حقول القضاء والعدل والتدريس الجامعي والفقه الإسلامي في انطباعاته عن مشروع هذا الكتاب: (ومن عجب أن مشاهد الخلوة ارتبطت عندي بآيات مخصوصة، كلما تلوتها تراءى لي مشهد تقابة القرآن متّقدة، ونحن من حولها جلوس في حلقة كبيرة، نرفع أصواتنا بالتلاوة، وقد تداخلت أصداؤها، وتمازجت موجاتها، والشيخ في صدر الحلقة يراقب ويحاسب ويوجّه)[2].

---

(1) وقد وردت هذه الجمل في كلمة أ.عطية محمد سعيد تعليقاً على مشروع كتاب الخلوة في طبعته الثانية.

(2) جاءت هذه الكلمة للأستاذ مولانا حافظ الشيخ الزاكي في تعليقه على مشروع الكتاب في طبعته الثانية.

وما أجْمَلَ ما قاله بلسانه وخطّه ببنانه أستاذ خبير في الشؤون العدلية ورجل دولة وأديب، وهو محب للخلوة وشيوخها الكرام الذين قرأ عليهم وصحب أنفاسهم الطاهرة، قال عن: (الخلوة والعودة الحلوة) في بيتين من الشعر أنشأهما في رسالة قصيرة معبّرة دَالة على مقدار ما يكنّه المحبُون للخلوة، رمزاً للأصالة والتدين الصحيح، جاء فيها[1]:

وما ضرَّ أن يخلو المحبّ بربه   فخلوته بالحِب محمودةُ السّر
ويا ليت خلوات الرجل جميعهم   كخلوة شيخ الدين منثورة الدُّر

جزى الله الشيخ على ما أهدى من حلاوات الخلوة وحلاوات العودة وجعلها الله صدقة جارية إلى يوم القيامة). و نقول آمين سائلين الله تعالى أن يبلغنا وإيّاه حسنات الدنيا والآخرة.

وقد بعث إلينا الأستاذ الجليل الشيخ/ حسن أحمد حامد برسالة مطولة يقرظ الكتاب ويسجل حسن ظنه بنا، ونختار من رسالته هذه العبارة: ((إن هذا الكتاب بهذا الاسم ما أدري أهو ديوان من دواوين العرب أم هو من تفسير كتاب الله الذي حوى درر المعاني لينال من خلاله صادق الإيمان وهاطل العرفان؟ أم هو ذكريات أفادها الصالحون حيث سمعناهم وهم يبثونها غير أن عقولاً منا قاصرة تناءت عن حفظها لسوء ما بنا من ثقل الذنوب، وغير أن حفظ أهل التوفيق أعاده إليه لنستذكرها

---

(1) جاء ذلك في كلمة الأستاذ الأديب القانوني المعروف أحمد إبراهيم الطاهر، تعليقاً على الطبعة الثالثة لهذا الكتاب.

فنحفظ بعضها بجاهه حيث نور الصلاح منه لائح، وطيب الإيمان منه فائح، وجمال العمل منه باد))..

ونحو مسك الختام تأتي إشراقات الشيخ العلامة عبد النور محمدين، وهو وثيق العُرى بالخلوة وما اتصل بها، يتعدى بهذه الوشيجة الإسناد المجازي في البناء والعمارة إلى النسبة الحقيقية في المبنى والمعنى معاً، حيث كان يبتني مباني الخلوة ويجمع عليها الحفظة والقرّاء، فتكتمل المباني والمعاني، طوبى له وحسن مآب.. وها هو يقرّظ الكتاب بيراع حاذق حصيف.

ثم أمّا بعدُ

فأحمد الله تعالى على ما أتيح لهذه الخواطر من حسن قبول عام واستحسان من أهل القرآن خاصة، وذلك ممن استمعوا إلى بعضها أو اطلعوا من بعد عليها وهي مشروع كتاب، أو مطبوعة في طبعتها الأولى.. وهي خواطر عبرت فيها عمّا في نفسي وعمّا في نفوس من أعرف حالهم.. ومنبع هذه الخواطر قلوب محبّة تستروح بذكر الله، وتستأنس بسيرة الذاكرين.. فهي من آثار الصحبة الطيبة ممّا عبر عنه الإمام سفيان بن عُيينة[1] : (عند ذكر الصالحين

---

(1) سفيان بن عُيينة، العالم المفسر و محدّث الحرم المكي، ولد سنة سبع ومائة، من أهل الكوفة، قال عنه ابن أخيه الحسن بن عمران: حججت مع عميّ سفيان آخر حجّة حجّها سنة سبع وتسعين ومائة، فلمّا كنا بجمع وصلّى استلقى على فراشه ثمّ قال: قد وافيت هذا الموضع سبعين عاماً أقول في كل سنة: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، وإني قد استحييت من الله من كثرة ما أسأله ذلك. فرجع فتوفى في السنة الداخلة، يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ودفن بالحجون. وكان ثقةً ثبتاً، كثير الحديث، حجّة. وتوفي وهو ابن إحدى وتسعين سنة، الطبقات الكبرى لابن سعد، دار الفكر، دار صادر، بيروت، ٥/٤٩٧- ٤٩٨.

تنزل الرحمة)(1). وفوق ذلك كله فإن الاطمئنان إنما يتحقق بذكر الله ذي الجلال والإكرام: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨).

وما أجمل الحديث وأحلاه من بعد عن تعليم القرآن وبخاصة عن (الخلوة والعودة الحلوة)، حفظها الله منارةً للقرآن، ونضَّر وجه كل شيخ معلِّم للقرآن، و(حوار) متعلِّم للقرآن، ومنفق وباذل من أجل أن يستمر صوت القرآن عالياً، وللذين يتلونه دوي كدوي النحل وأزيز كأزيز المرجل.

هذا وإن عظمة القرآن في النفوس من دلائل إعجازه، بكل وجوه الإعجاز البياني والتشريعي والعلمي، وذلك من أسرار خلود القرآن وهيمنته، وكفالة الله تعالى بحفظه أبد الدهر، مصداق قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

وإنما يمنح القرآن العظيم كنوزه لمن جاءه من بابه بصدق الإيمان وإخلاص العمل واستحضار جلال الله تعالى والاستعداد للقائه، ويعبِّر عن ذلك قول حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن فازددنا به إيماناً)، وأيضاً قول عبد الله ابن مسعود ﷺ:(كنا ونحن فتيان حزاوره -يعني في إبان الشباب والقوة- نتعلم الإيمان قبل أن نتعلم القرآن فازددنا به إيماناً).

ونحن بهذه النظرة التأصيلية والعودة الحلوة لنجدِّد صلتنا بالقرآن العظيم، نستهديه في عصرنا هذا في مواجهة مشكلاته، وهو الكتاب

---

(1) أبو نعيم الأصفهاني حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ج٧ ص٣٣٥.

المحفوظ الذي يقدّم الهداية لأحسن النظم وأكملها وأوفاها بسعادة الدارين:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٩)، كما يقول القرآن نفسه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٨٧).

وهكذا تترى على الكتاب آراء العلماء الفضلاء، فيزدهي بهم، حتى لكأنهم شركاء أصيلون في أفكاره وخواطره، ومصدر اهتمامهم معلول معلوم وهو اتصال الخلوة بأصل الأصول (القرآن العظيم)، نفعنا الله تعالى وإياهم بتعلّمه وتعليمه.

"فلا يصح أن أترك هذا السِّفْر المبارك غُفلاً بلا كتابة ولا تعليق، فأنا وإن لم أكن من الأبطال في الحربِ؛ فما أقل من الماشين على الدربِ، فصاحبه غريبٌ في نوعه، وأنا أيضاً غريب في حبه لي، وكل غريب للغريب نسيب:

أماويَّ إنّا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

والغريب إذا دخل قرية آوى إلى مسجدها، وهذا الكتاب جمع ما له صلة بالمسجد، بل هو أصل أصيل (الخلوة)، فأنا من محبيها منذ نعومة أظافري حتى استشن الأديم(*)، ووهن العظم، واشتعل الرأس شيباً، وناهزتُ التسعين، وما زلت:

(*) استشن الأديم: يَبِسَ الجلد وتقلّص ويقال: تشننت بَشَرَةُ الرجل: كثرت غُضُونها عند الكبر. المعجم الوسيط، ص ٤٩٦.

أُهيم بسُعدى ما حييت فإنْ أمُتْ　　أوكلْ بسُعدى من يهيم بها بعدي

وبسبب هذه (العُلْقَة)(••) تجدني تابعاً لأهل العلم والفضل أمثل مؤلف هذا الكتاب. فعنّ لي ان اكتب ولو لم أكن أهلاً، ومدخلي قول ابن مالك في ألفيته:

وعُلقةٌ حاصلةٌ بتابع　　كعُلقةٍ بنفس الاسم الواقع

والصّلات تجر، فأقول هو سِفْر يسفر عن روحٍ طاهر، وسجل لعملٍ باهر، وأتمنى من الله أماني غالية أن يتمها له، ويقرّ بها عينه، ويثلج بها صدور المحبين من المسلمين أمثالي، رغم ما رمت به الأيام من الحدثان، ورغم ما أبدعت به يد الملحدين وأهل الكفران، فإنّ الله غالبٌ على أمره.

وتلك الأمنية التي أشار لها مؤلف كتاب (الخلوة) هي أغلى وأحلى الأماني، وعسى أن تتم:

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى　　وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغداً

والسلام.

ههنا توقف يراع شيخنا الفاضل عن خواطره الفياضة حول الكتاب.

وهناك خواطر أخرى، ولكنها منظومة، هي لشقيقي محمد وهو يشاركني في صحبة الخلوة، بحياتها وذكرياتها، ولطالما ذكرني بما كان له أحفظ من أخبار الخلوة ومعالمها وأعلامها، ومن ذلك هذه الأهزوجة المرسلة، ذات الدلالات

(••) عُلقة: تعلق، وعلاقة أي صلة، وما يتمسك به، وجمعها عُلَقّ. انظر المعجم الوسيط، ص٦٢٢.

الموحية والصور المعبرة، يشاركني بها في حلاوة العودة إلى معين الخلوة:

خلوة تغرس في الروح اليقين

شيخها التلاء يملي ويبين

وحواليه التلاميذ قلوب وعيون

يتلقون بشوقٍ وحنين

ويحثون الخُطى

ويوالون السُّرى

بحداء بكتاب الله موصول العُرى

بأهازيج نديّات الرؤى

لبلوغ الأمل المرجو والعمر ضُحى

ورفيق الدرب لوحٌ ودواةٌ وقلم

وشعاعٌ من رجاءٍ وعلوٍ وشمم

همةً لا تعرف اليأس ولا معنى الألم

* * *

وعيونٌ في انتظار بحنو وانبهار

عودة الطالب شيخاً ذا وقار

عالمًا يفتي ودوحاً ومزار

وسلاماً في هجير الأرض

روضاً وغمام

وأماناً وملاذاً

ومقيلاً ومقام

* * *

كم على الرّمل كتبنا ومحونا

وارتقينا بعد حين

وعلى اللوح كتبنا

أحرف النور وفزنا

كانت الأيام حُبلى بالنعيم

بالرضا بالخاطر السّمح الرحيم

لم نكن نعرف شيئاً من هموم

غير ما نحفظ من آيٍ كريم

* * *

وبسيطٌ كل شيء

قلم البوص ونيران العشي

ودواة صمغها من شجر السُنط

وبعض من سناجٍ وشعر

ثم لوح من عُشر

* * *

ونقيٌ كل شيء

رفقةٌ كانوا على نهج النبي

في صفاء النفس والعزم الأبي

في الرضا والصدق والعقل الذكي

* * *

وضربنا في فجاج الأرض دهراً ثم أبنا

وإذا الخلوة كالعهد بها

حضناً وحصنا

ومناراً يرشد السّاري وأمنا

هكذا غبنا وأبنا

وتعانقنا طويلاً وبكينا

وادّكرنا عهدنا الزاهي

وأياماً مضين

وشربنا الحب كأساً بعد كأسٍ وما ارتوينا

ليتنا عدنا إليها

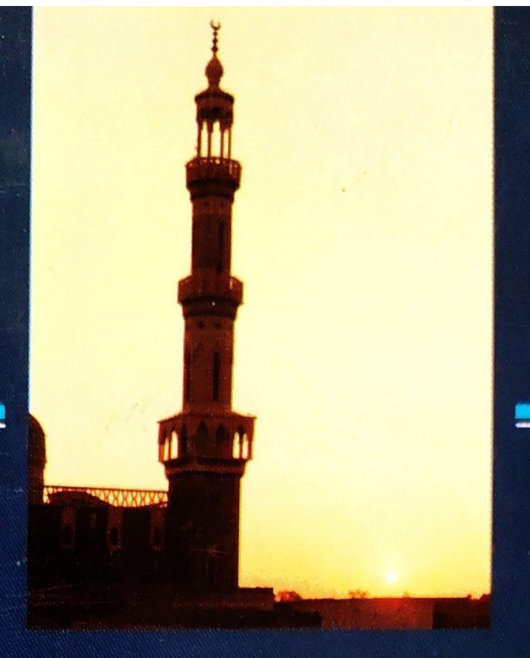
ليتها عادت إلينا

الفهرست

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٠٦

الطابعون : دار مصحف إفريقيا

ت: ٢٣٣٣٧١ / فاكس: ٢٣٣٣٧٢



هذا الكتاب تشع بين سطوره بروق من الشوق والوجد والحنين للمنزل الأول، الذي هو الخلوة، والخلوة مرتع الصباء ومشكاة لطلبة القرآن، ورمز لأصالة الثقافة الإسلامية في بساطتها وقوتها ورباط للمسلمين يلوذون بحماها ويتزودون منها لنفرات الجهاد في شعاب الحياة.

وصاحب هذه الصحائف الشيخ أحمد، نشأ في أحضان الخلوة ورضع القرآن في مرابعها وتشرب علوم الشريعة من جوامعها وجامعاتها، ثم تقلبت به صروف الأقدار في المؤسسات العلمية المعاصرة حتى نال الدرجات الرفيعة في ديار الغرب، مزاوجاً بين معارف العصر وعلوم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية وشغل من بعد منصب مستشار رئيس الجمهورية للتأصيل، مع استمراره في القيام بتكليف البلاغ والدعوة والإعانة على إقامة الدين في المجتمع والدولة، وما من شيء يبتغيه الطالبون من الوظائف والمراتب إلا جعل الله له من ذلك النصيب الأوفى من غير طلب أو استشراف.

وعاد يوماً يزور الخلوة فلمعت بروق الشوق له فاستصغر كل درجة علمية، وهانت عليه كل وظيفة ورتبة وحنَّ إلى الخلوة، إلى البساطة إلى الأصالة، إلى شيوخها وحبرانها وترابها، وكل ذلك ما هو إلا حنين إلى القرآن

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وتجربة عودته هذه وحنينه فيها رمز لكل تجربة الأمة الإسلامية التي تقبلت بها صروف الأيام والمحن، فاحتضنتها مناهج الغرب حيناً، وتلقفتها نظم الشرائع، وألوان الفلسفات وتفرقت بها السبل، ثم إن كل شيء في العالم اليوم يخبر بأن وجدانه يحن إلى العودة حلوةً مرةً، صعبةً سهلةً، ذلك معنى الأحداث وتأويل الأحلام، ومنطق الحال واللسان، أن لا بد من عودة إلى الأصل، وأصل الأصول هو القرآن.



المكتب الرئيس: الخرطوم . العمارات . شارع ٤١
تلفونات: ٤٦٩٨٦٤ . فاكس: ٤٦٩٨٨٧ (١١ ٢٤٩ +) . ص.ب: ٢٩٩٧ الخرطوم
E-mail: info@zubairprize.com - E-mail: apsi15@hotmail.com